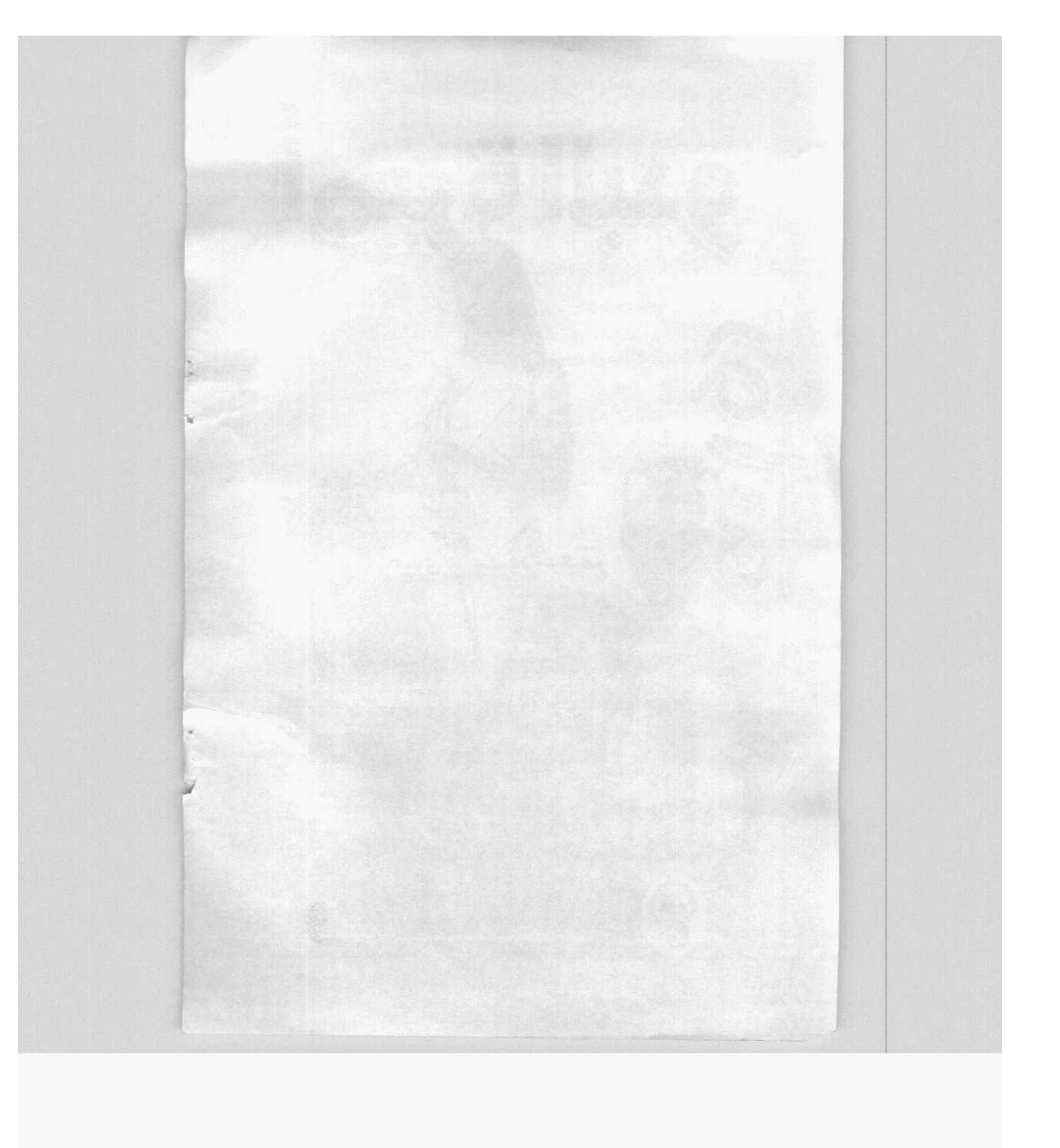
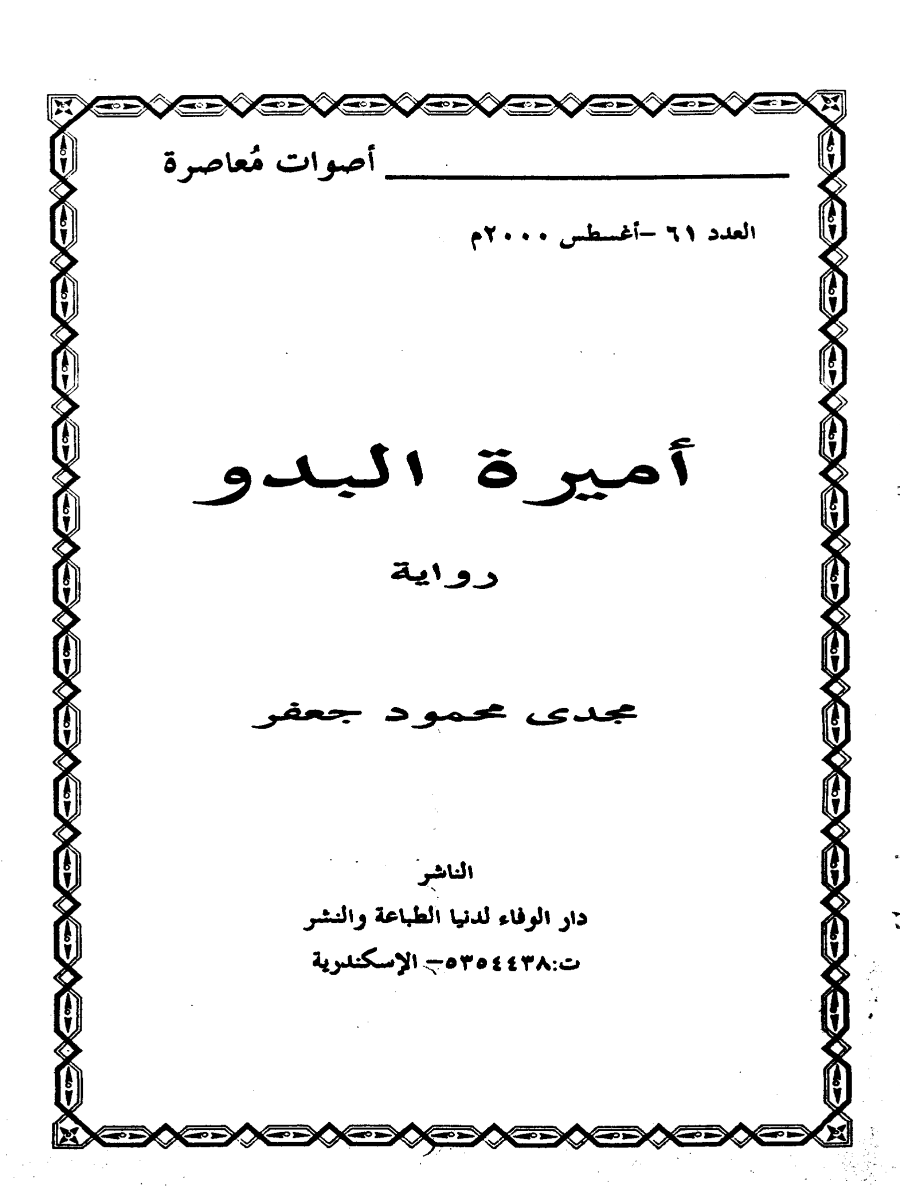


أميرة البدو
رواية
مجدي محمود جعفر
ت و فاكس: ٠٣/٥٣٥٤٤٣٨ الاسكندرية





أصوات مُعاصرة

العدد ٦١ -أغسطس ٢٠٠٠م

# أميرة البدو

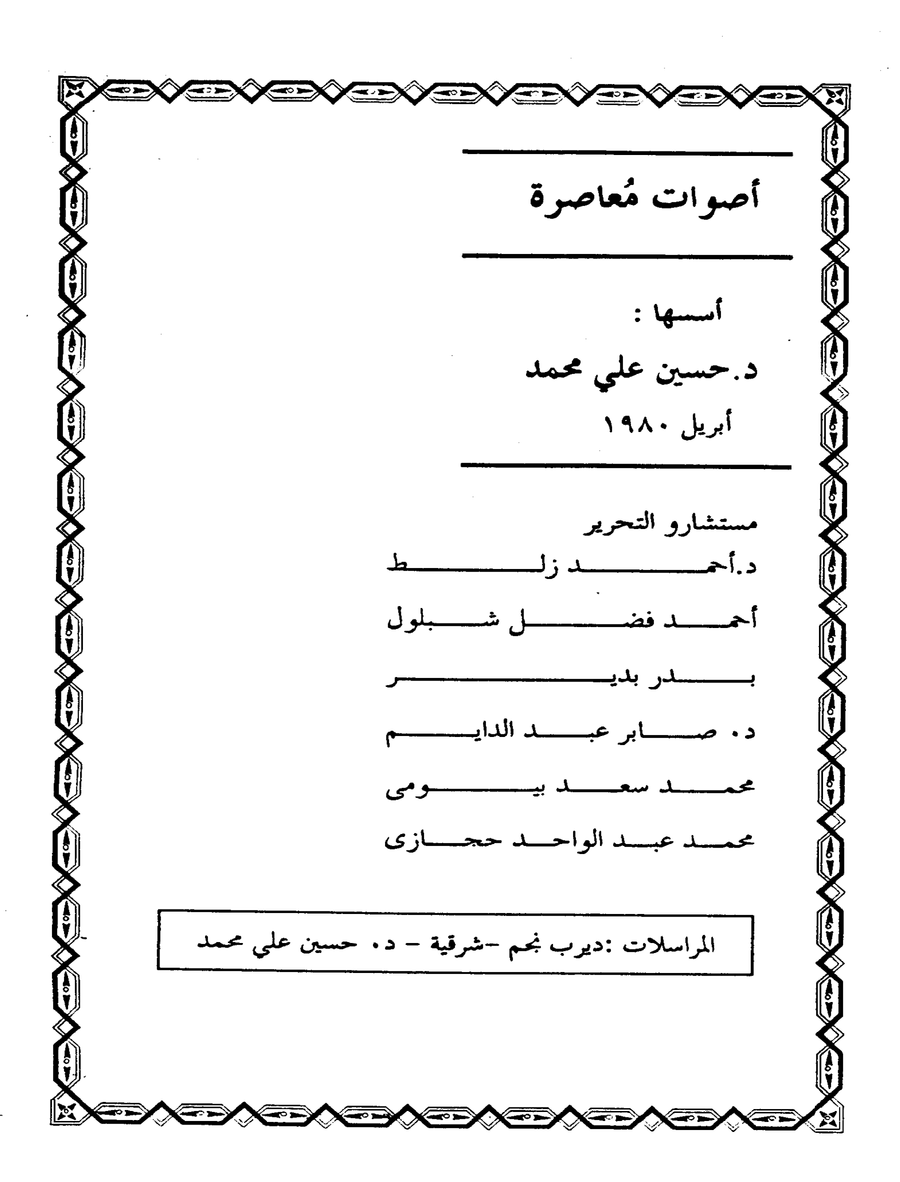
رواية

مجدى محمود جعفر

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

ت:٥٣٥٤٤٣٨- الإسكندرية



# أصوات مُعاصرة


أسسها :

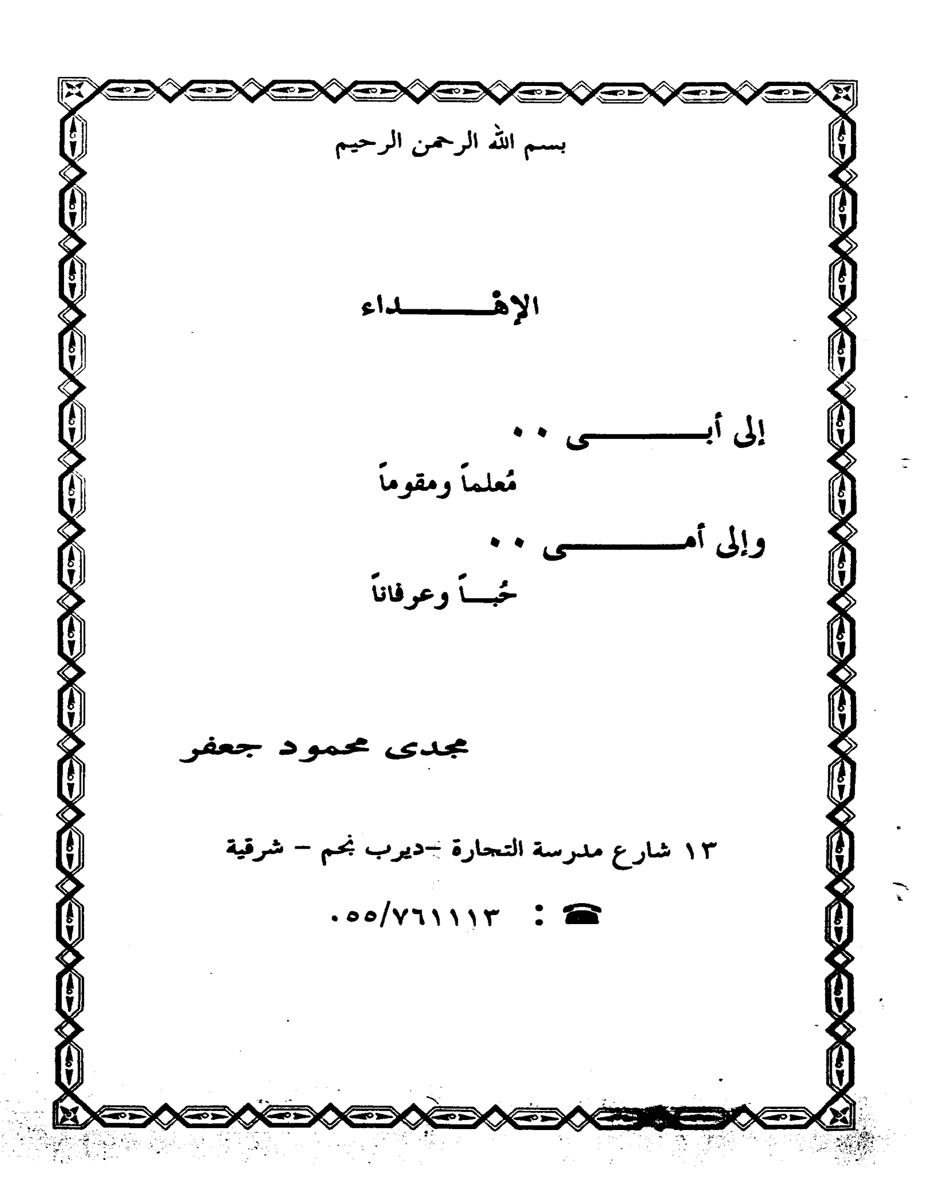
**د.حسين علي محمد**

أبريل ١٩٨٠





المراسلات :ديرب نجم -شرقية - د. حسين علي محمد



بسم الله الرحمن الرحيم

## الإهـــــداء

إلى أبــــــى ..

مُعلماً ومقوماً

وإلى أمــــــى ..

حُبـاً وعرفاناً


مجدى محمود جعفر

١٣ شارع مدرسة التجارة -ديرب نجم - شرقية

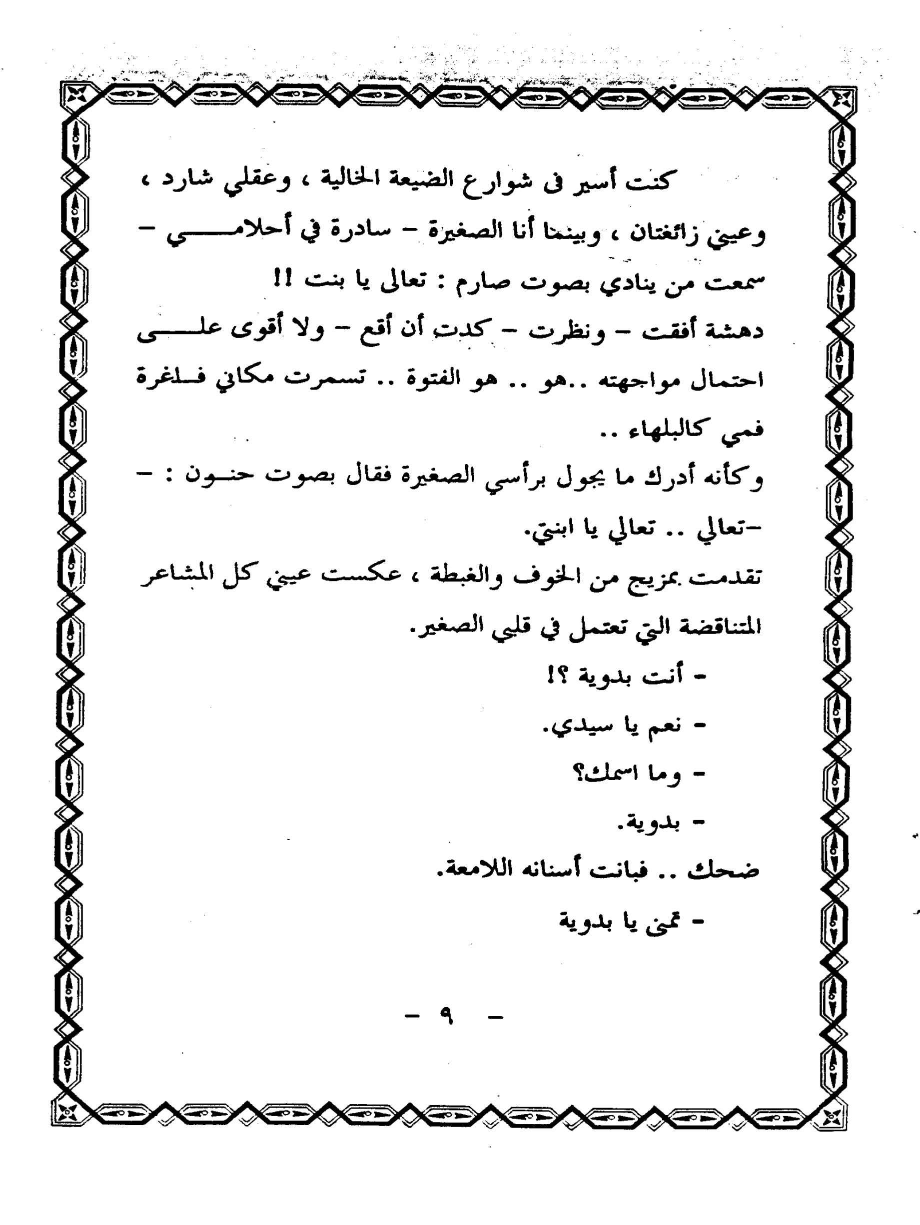
☎ : ٠٥٥/٧٦١١١٣

## ( ١ )

صغيرة كنت ، حافية القدمين ، مهملة ، مثل أخواتي. الأكبر مني والأحدث سناً ، نسوق إبلاً و ماعزوخرافاً ، نحلب الشياه والنوق، نضرب بخيامنا في أي مكان، لا نتقيد بحدود أو فواصل ، .. كنا نحس بأننا نملك الفضاء والخلاء الكبير ، وفي الفيافي الواسعة ، والصحارى الممتدة ، المطر شحيح ، والزاد قليل. وأسعد أيام حياتنا تلك التي نرعى فيها بالقرب من تخوم ضيعته التي تجري فيها أنهار وتنهمر عليها أمطار ، نعب مع أغنامنا من الماء العذب الفرات ونحمل منه ما يكفي لحاجتنا شهوراً ، ونحمل دقيقاً وخبزاً طرياً وعسلاً وتمراً ، وفاكهة وأبا .. كان الخير في ضيعته كثيراً ، والرزق وفيراً.

أهل ضيعته يعطفون علينا ، ويعطوننا ما نحتاجه من مؤن ، كنت أسمع عن فتوة الضيعة ولا أراه إلا في الصور ، ملأت سيرته الصحراء ، وكل قبائل البدو تتسابق لتحط بخيامها على مقربة من ضيعته لينالهم الخير ..

وذات مساء ، كنت صبية دون العاشرة أو أ كثر قليلاً
، تسللت من خيمتنا ، والهواء رقيق ، ومضيت إلى الضيعة
لأمتع ناظري بجمالها ، وأرقبها في ليل مقمر ، أشجار النخيل
باسقة ، والأراضي المترعة على مدد البصر ، والشوارع
نظيفة مسفلتة ، وأعمدة الكهرباء تبث أنواراً خافتة ، الحوانيت
مغلقة ، والبيوت ساكنة هادئة ، أحسد قاطنيها على نومهم
الهادئ ، وحياتهم المترفة الناعمة ، ولكم تمنيت أن أعيش –
كما تعيش بنات الضيعة – يلبسن فساتين زاهية الألوان براقة
تسر الناظرين ، وينتعلن أحذية لامعة ، يكشفن وجوههن
الجميلة ، ويصبغنها بألوان مختلفة ، تبدو بنات الضيعة
كحوريات من الجنة ، يتركن شعورهن دون غطاء ، ملابسهن
الضيقة والقصيرة تبرز صدورهن الجميلة ، وأذرعهن وسيقانهن
وأفخاذهن ، يمشين بدلال وغنج ، تفوح منهن رائحة العطر ،
يسرقن أبصاراً ويخطفن قلوباً.



كنت أسير في شوارع الضيعة الخالية ، وعقلي شارد ، وعيني زائغتان ، وبينما أنا الصغيرة - سادرة في أحلامـــــي - سمعت من ينادي بصوت صارم : تعالى يا بنت !!

دهشة أفقت - ونظرت - كدت أن أقع - ولا أقوى علـــى احتمال مواجهته ..هو .. هو الفتوة .. تسمرت مكاني فـاغرة فمي كالبلهاء ..

وكأنه أدرك ما يجول برأسي الصغيرة فقال بصوت حنــون : -

-تعالي .. تعالي يا ابنتي.

تقدمت بمزيج من الخوف والغبطة ، عكست عيني كل المشاعر المتناقضة التي تعتمل في قلبي الصغير.

- أنت بدوية ؟!

- نعم يا سيدي.

- وما اسمك؟

- بدوية.

ضحك .. فبانت أسنانه اللامعة.

- تمنى يا بدوية

- أقصى أماني يا مولاي أن أكون بنتاً من بنات الضيعة

.. ضحك ، وضحك من معه وكأنها ترى لأول مرة رجالاً معه.

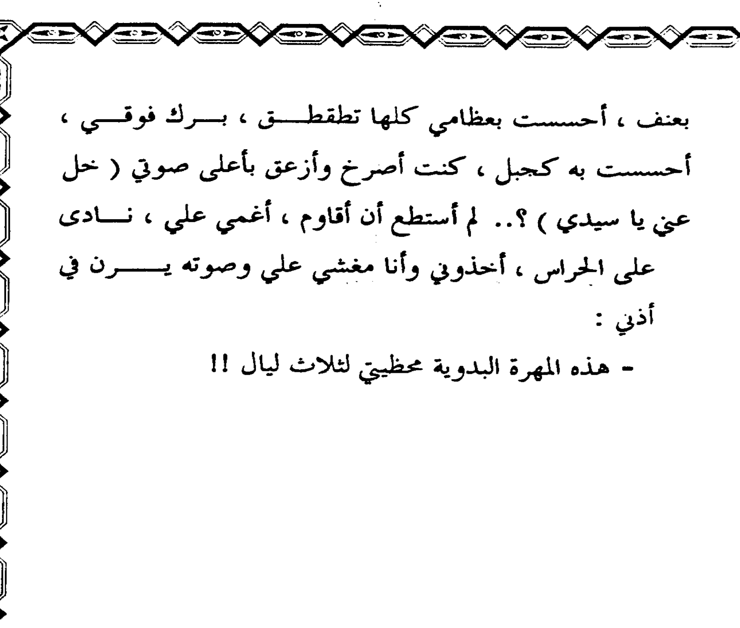
- ألبس الأردية الأنيقة ، والأحذية الأنيقة ، أنام على فرش وثير ، وأملك مالاً وفيراً..

ونَظَر إليّ، وتمعَّن في ملامحي ، وأشار إلى من معه

-خذوها حققوا لها ما تتمنى !!

*********************

لم أصدق نفسي عندما نظرت في المرآة ، لم أكن أبداً أنا ، وتمنيت ألا أعود إلى أنا القديمة ، وألا أرجع إلى حياة الصحراء وعندما أدخلوني عليه .. ابتسم ، كان متكئاً على أريكة ، اعتدل ، وأجلسني إلى جواره ، وراح يداعب خصلات شعري ، عيناه فجرت في داخلي إحساساً غريباً ، ويداه التي تدلك رأسي وعنقي ، أشعلت ناراً ، وزاد لهيبهاعندما فرك صدري ولضم فمه في فمي ، ضمني إلى صدره



بعنف ، أحسست بعظامي كلها تطقطـــق ، بـــرك فوقـــي ، أحسست به كجبل ، كنت أصرخ وأزعق بأعلى صوتي ( خل عني يا سيدي ) ؟.. لم أستطع أن أقاوم ، أغمي علي ، نـــادى على الحراس ، أخذوني وأنا مغشي علي وصوته يـــــرن في أذني :

- هذه المهرة البدوية محظيتي لثلاث ليال !!

( ٢ )

ما كان لأقاربي من البدو أن ينتقموا لشرفي من الفتـوة ، ولا حتى بقادرين على البوح ، فيده طويلة ، وضرباته عنيفـة ، لم يتجاوز تبرمهم الحلوق ..

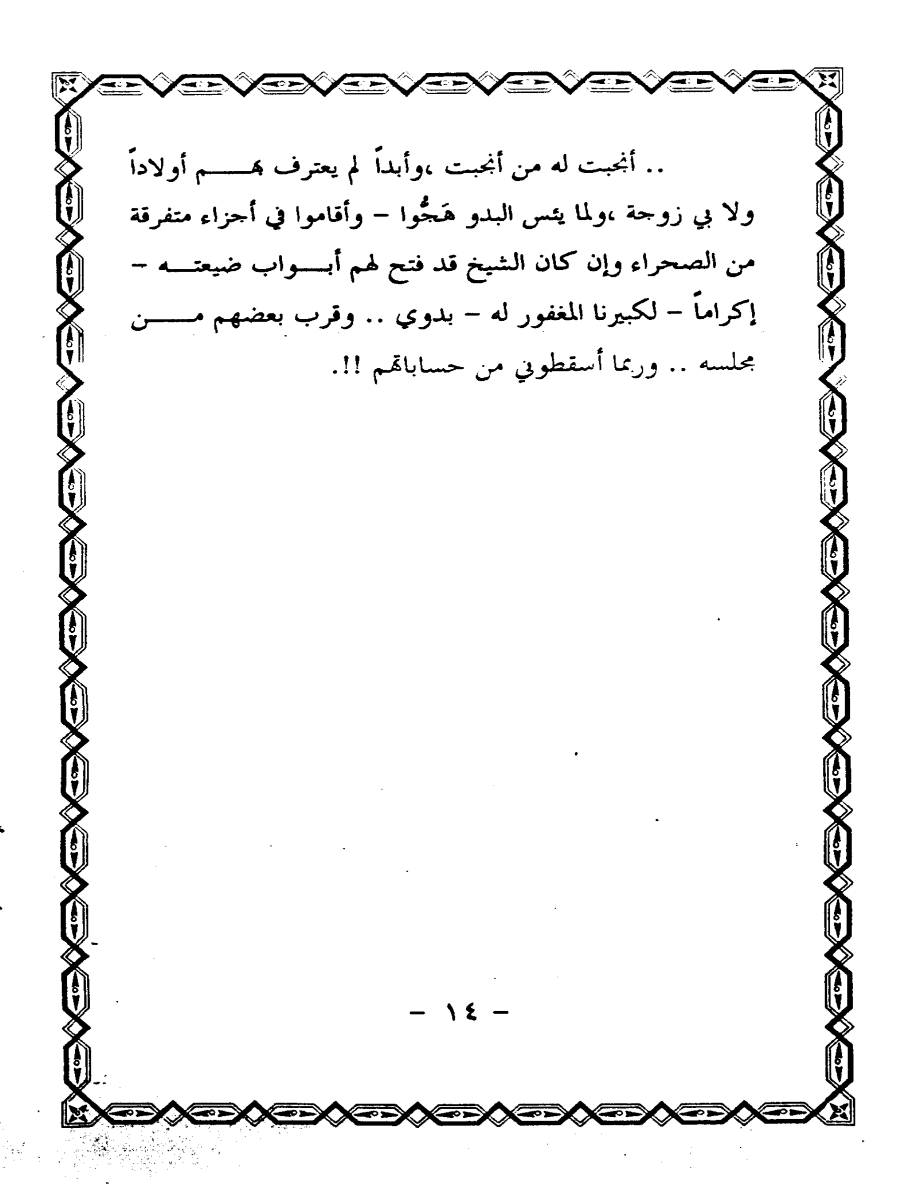
فبعد أن مات كبيرنا ( بدوي ) زعيم البدو ، أصبحنا حبـات رمال ، تصفعنا الرياح ، لا حول لنا ولا قوة .. فلـم يكـن أمامهم إلا أن يغمضوا أعينهم عن علاقتي الآثمـة بـالفتوة ، وأخذوا يدفعونني دفعاً لأخطب وده ، وأتقرب إلى عقله وقلبـه ، فربما يأتي يوم يتزوجني فيه زواجاً شرعياً ، ويكـون لي مـا لنسائه عليه فيعلو شأني وشأنهم !!

كان يلقاني دوماً في الهزيع الأخير من الليل ، نمـارس الحب واللهو الجميل ، يفضي لي ببعض همومه ، ويبوح ببعض أسراره ، فتوة الضيعة وأسد الصحراء ، يلبد في حضني كحمل وديع ، صوته الأجش الصارم القاسي يتحول إلى صوت رقيـق .. ناعم .. دافئ حنون ..

لا أنكر أني أحببته ، وملأ علي حياتي ، كان يقـــول لي. يا أجمل مهرة عربية ، وكنت أقول له يا أعظم فارس عربي .. كنت أراه (أبو الفوارس) خرج من رحم الحكايات العربيــة القديمة ، ولم تنقض أسابيع قليلة على لقاءاتنا حتى أثمرت جنينــاً في البطن ..

زاد أملي ، وأمل البدو الذين نالهم خيراً ، ورزقـاً ، أن يعلن الفتوة ضمي إلى نسائه ، وزادت أحلامـــــي أن يكـــون للطفل الذي يتشكل في أحشائي نصيبٌ في الضيعة !.. كـــان يبتسم عندما أحكي له عن أحلامي ..

أصبحت أحلامي تنحصر في الاعتراف بي زوجة لـه ، وبمن يأتي من بطني ابناً له ، وليس كل ما يتمناه المرء يدركـه ، فبعد أن وضعت مولوداً جميلاً – قصارى ما فعله – أن قبلـه – واقتطع لنا من الصحراء المتاخمة لضيعته جزءا صغيراً ، ابتنى لنـا فيه داراً صغيرة وبيتاً ضئيلاً لا يضاهي بيوت البسطاء في ضيعته ، وأصبح يأتي لنا على فترات متباعدة – بعد أن كـــان يـــأتي مرتين في اليوم !.



.. أنجبت له من أنجبت ،وأبداً لم يعترف بهم أولاداً ولا بي زوجة ،ولما يئس البدو هَجُّوا – وأقاموا في أجزاء متفرقة من الصحراء وإن كان الشيخ قد فتح لهم أبواب ضيعته – إكراماً – لكبيرنا المغفور له – بدوي .. وقرب بعضهم من مجلسه .. وربما أسقطوني من حساباتهم !!.

( ٣ )

يوماً بعد يوم تزداد شعبيته ، ويبسط نفوذه ، يده قوية تهوي على قفا من يقف في طريق أحلامه فيخر صعقاً ، يفقــأ عينيّ من يتلصص عليه ، ويبتر لسان من ينتقده ، أهل الضيــاع من حوله يخشونه ، ويعملون له ألف حساب.

وهاهو ذا يلعب مع فارس لعبة القط والفأر ، وما عاد يلتفت لي ولا يعيرني اهتماماً ، شغلته أحلامه عني ، وألمــح لي مراراً أنني بدوية .. ومن الصعب أن أعترف بك زوجة وبمــن تلدينهم أولاداً ، تفجر في داخلي بركان الغضب ..

أصبحت كأني شيء مهملاً أعيش في دار صغيرة على تخــوم ضيعته !!

. وذات مساء ركبت بدوية البحر ، ومضت مــع أمواجه ، تبث البحر همومها ، وتشكو للسماء هجر الفتــوة وتخليه عنها ، نسمات هواء رقيقة تأتي من البحــر ، شــعرها الأسود الفاحم مفرود يطيره الهواء ، تفكر في مصيرها وفيمــا

آل إليه حالها .. دمعات حارة انسابت على خديها ، اكتـــوى قلبها ، تدفقت الدموع من عينيها السوداوين ، وتدفق مطـــرٌ غزيرٌ من السماء ، برقت السماء ورعدت، أخذت تجري مـــن البحر ، كانت في عرض البحر ، والزورق صغير ، يتمـــايل ، أمسكت به بشدة في محاولة يائسة لتفادي الوقوع ، صرخـــت وهي تقع ويداها متشبثتان بمؤخرة الزورق الذي يلـــف مـــع الأمواج ، تصعد معه وتهبط ، ويصعد قلبها ويهبط ، وتطلـــق صرخات متتالية ومتعاقبة ، وهنَّ منها العنق والعضد والساق ، وخف وجيب قلبها ، أغمضت عينيـــها واستســـلمت ، وفي اللحظة التي غادر فيها الزورق يدها - أحست بيد قويـــة .. تمسك بها .. وهي تنزل تحت الماء ، يد ملاك أو شـــيطان أو عفريت .. المهم أن يداً جذبتها بقوة إلى أعلى ..

كان مغمياً عليها ، و لم تشعر بنفسها إلا على الشاطئ ، ورجل تميل بشرته إلى الصفرة عرفت أنه فارس يضغط علـــى بطنها ليخرج من فيها الماء المالح ، دثرها بمعطفه وربط علـــى

كتفها وبيد حانية مسح دموعها وحملها إلى ضيعته ، وأوقد لها ناراً وداواها وأطعمها وسقاها ، وباحت له بسرها ......!

وبينما تمشي بدوية بجوار فارس في تلك الليلة القمراء عائدة من ضيعته إلى بيتها على حدود ضيعة الفتوة .. كان فارس يختلس النظرات إلى قوامها الممشوق ، وجمالها الطاغي ويفكر أيضاً فى الفتوة وما بينهما من عداوات وثأرات وتذكر مقولة تابعه

– امرأة جميلة يا مولاي . وتكره الفتوة .. لماذا لا نستعملها ونجعلها خنجراً نغمده في قلبه .. أو نجعلها سلاحاً ندخره ريثما نحتاجه في قادم أيامنا !

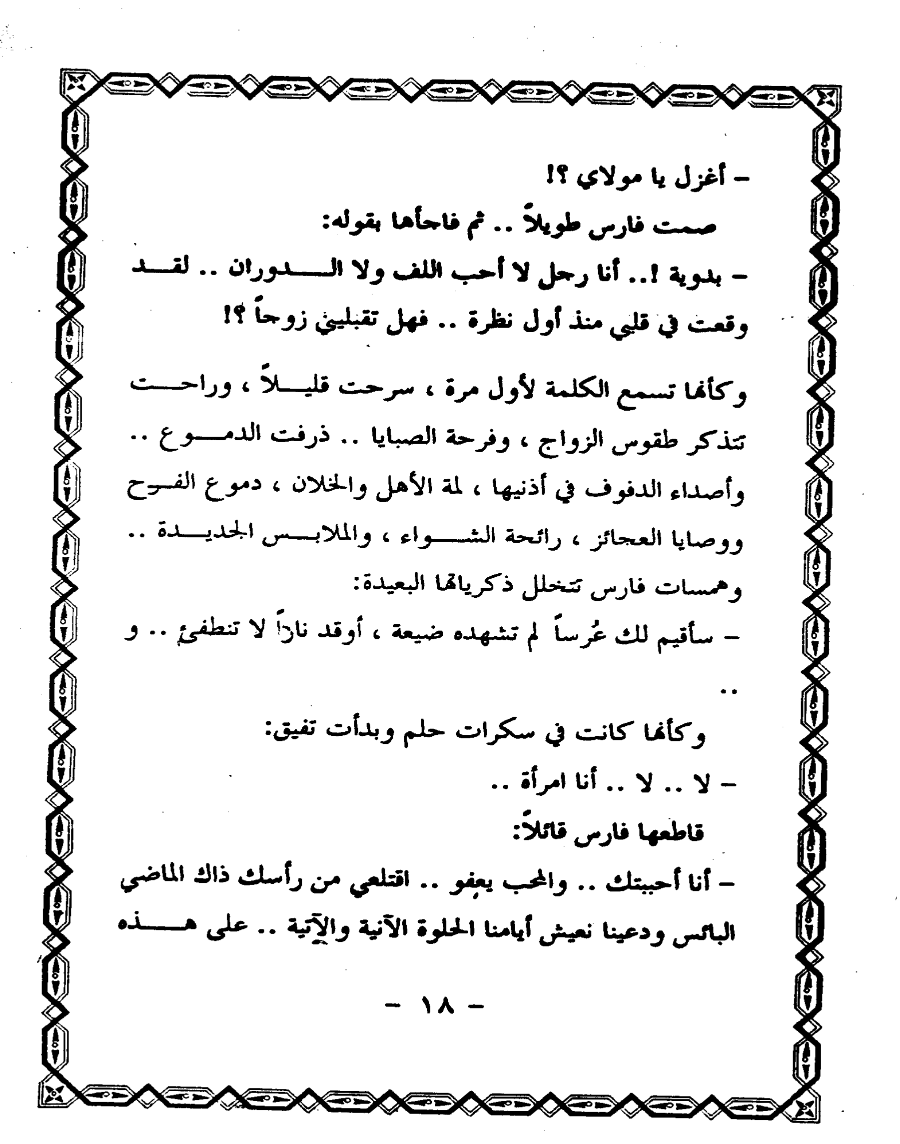
اختلطت الأمور في رأس فارس وراح ينفخ بغيظ ، التفتت إليه بدوية قائلة بدلال :

– لماذا ينفخ مولاي ؟!

تدارك فارس الأمر ، وابتسم. وقال:

– كنت أتمنى أن يطول الطريق !

فرحت بدوية في قلبها وقالت:



**- أغزل يا مولاي ؟!**

**صمت فارس طويلاً .. ثم فاجأها بقوله:**

**- بدوية !.. أنا رجل لا أحب اللف ولا الـــدوران .. لقـــد وقعت في قلبي منذ أول نظرة .. فهل تقبليني زوجاً ؟!**

وكأنما تسمع الكلمة لأول مرة ، سرحت قليـــلاً ، وراحـــت تتذكر طقوس الزواج ، وفرحة الصبايا .. ذرفت الدمـــوع .. وأصداء الدفوف في أذنيها ، لمة الأهل والخلان ، دموع الفـــرح ووصايا العجائز ، رائحة الشـــواء ، والملابـــس الجديـــدة .. وهمسات فارس تتخلل ذكرياتها البعيدة:

- سأقيم لك عُرساً لم تشهده ضيعة ، أوقد ناراً لا تنطفئ .. و ..

وكأنها كانت في سكرات حلم وبدأت تفيق:

**- لا .. لا .. أنا امرأة ..**

**قاطعها فارس قائلاً:**

**- أنا أحببتك .. والحب يعفو .. اقتلعي من رأسك ذاك الماضي البائس ودعينا نعيش أيامنا الحلوة الآنية والآتية .. على هـــذه**

الربوة سنقيم عش حبنا نعيش فيه أجمل أيام عمرنا ، كالعصافير نغني .. سنجعل منافذ البيت تطل على البحر ويكـــون ظـــهر البيت للفتوة ، ولن نجعل فى ظهر البيت منفذاً ، سنسد عليـــه وعلى ماضيه كل المنافذ ..و..وللحظات أحست بدوية بأن نهر الكبرياء بدأ يتدفق في عروقها ويعيد إليـــها فـــارس الكرامـــة والعزة، ففارس والفتوة ألداء .. وفارس خير من أحتمي به من غدر الفتوة ،وهاهم فرسان فارس يجوبون الفضاء في خيـــلاء ويقتربون من تخوم ضيعة الفتوة .. وبينمـــا هـــي ســـادرة في أفكارها هزها فارس .. وكأن مساً كهربائياً مـــسّ جســـدها فانتفضت. ابتسم قائلاً – هل توافقين؟! نظرت في عينيـــه .. فتسلل بريقهما إلى قلبـــها .. و لم تســـتطع أن تقاومـــهما .. فأطرقت رأسها خجلاً واستحياء.

ابتسم فارس وقال:

– السكوت – آية من آيات الرضى ودليل القبول ! ووهـــب نفسه لها ، ووهبت نفسها له وتعانقا عناقاً حاراً .. وأمر فارس فرسانه بإقامة الأفراح والليالي الملاح.

( ٤ )

**قال الشيخ:**

**رحم الله الفارس الهمام .. بـــدوي ، كـــان عارفـــاً** بدروب الصحراء ومسالكها الوعرة ، يعرف الجبال ، والتـلال ، والوديان ، ويقتفي الأثر ، يعرف الســراديب والجحــور ، يعرف مخابئ الأسود والذئاب وجحور الأفاعي والجرذان.

وأثار حديث الشيخ الشجون ، ودمعت العيـــون .. وقال:

- آواني لأيامٍ ولأسابيع ، وجهز لي أمهر فرســـان البـــدو واعتصمنا بالجبال ، كان يملك خيلاً مسومة ، وفرساناً مدربة ، مكنني من الضيعة وعاونني في السيطرة عليها.

وشد الشيخ نفساً عميقاً وحملق في اللاشيء .. وقال:

- وكان عاشقاً للنساء لم تفلت امرأة حلوة منه .. بل الحق أنهن كن يسعين إليه:

- كانت النساء يتسللن - في الليل - إلى وكره المتواضـــع الذي ابتناه على البحر -يصغين إلى صوته الجميل وهو يغـــني.

ويعزف للأسماك فتخرج الأسماك زرافات وجماعات- ينتقي واحدة .. سمكة واحدة فقط .. يتقوت بها ..

ويطلق صقوره - تغوص في عمق البحر - تخرج له اللآلئ ..

يختار أجمل النساء ، يطوق جيدها بعقد من اللؤلؤ ..

وتنام معه لليلة !.. ليلة واحدة فقط !!

لم تعمر معه امرأة لأكثر من أسبوعين ! .. كم امرأة عاشرها؟

.. لا ندري ! كم امرأة انتفخ بطنها بولد له ؟ .. لا ندري !

،النساء يتحطرن ، ويتزين ، ويحلمن بليلة معه .. وبعقد من اللؤلؤ .. وعشاءَ من السمك الجيد ..

ينتقى أجملهن ، يقضي معها وقتاً ثم ينبذها ويهبها لأحد فرسانه !

رأيت بأم عيني الفتوة - الذي يسمونه بالأسد - يبول على نفسه وهو واقف بين يدي بدوي - ترتعد فرائصه ، وتصطك أسنانه .. ورأيت كف بدوي وهي تهوي على قفا فارس فيتورم ، وعلى وجهه فتحفر أصابعه خطوطاً حمراء على خده!!..

مرغمين كانا يدفعان له ( الإتاوة ) .. تأتي الجمال والحمير محملة بالدقيق والعسل والتمر والفاكهة.

.. وفي المقابل .. كانت الضياع تأمن شر سطو اللصوص ، ويأمن التجار على متاجرهم والناس على أموالهم وأعراضهم.

.. قطع بدوي رحمة الله عليه دابر قطاع الطرق ، وكنس الجبال من رجال الليل .. والمطاريد .

استحالت الصحراء الواسعة في زمنه - إلى طريق آمن !

واعتدل الشيخ ، وأمر خادمه بصب الشاي ، وتناول كوب الشاي ورشف منه بتلذذ وقال:

- كان مقصدا لكل مظلوم ، يأتي بحق المظلوم ولو من حنك السبع ، يوزع أطنان الدقيق والعسل والتمر التي تأتيه من الضياع على الأرامل والفقراء وعابري السبيل والمساكين ..

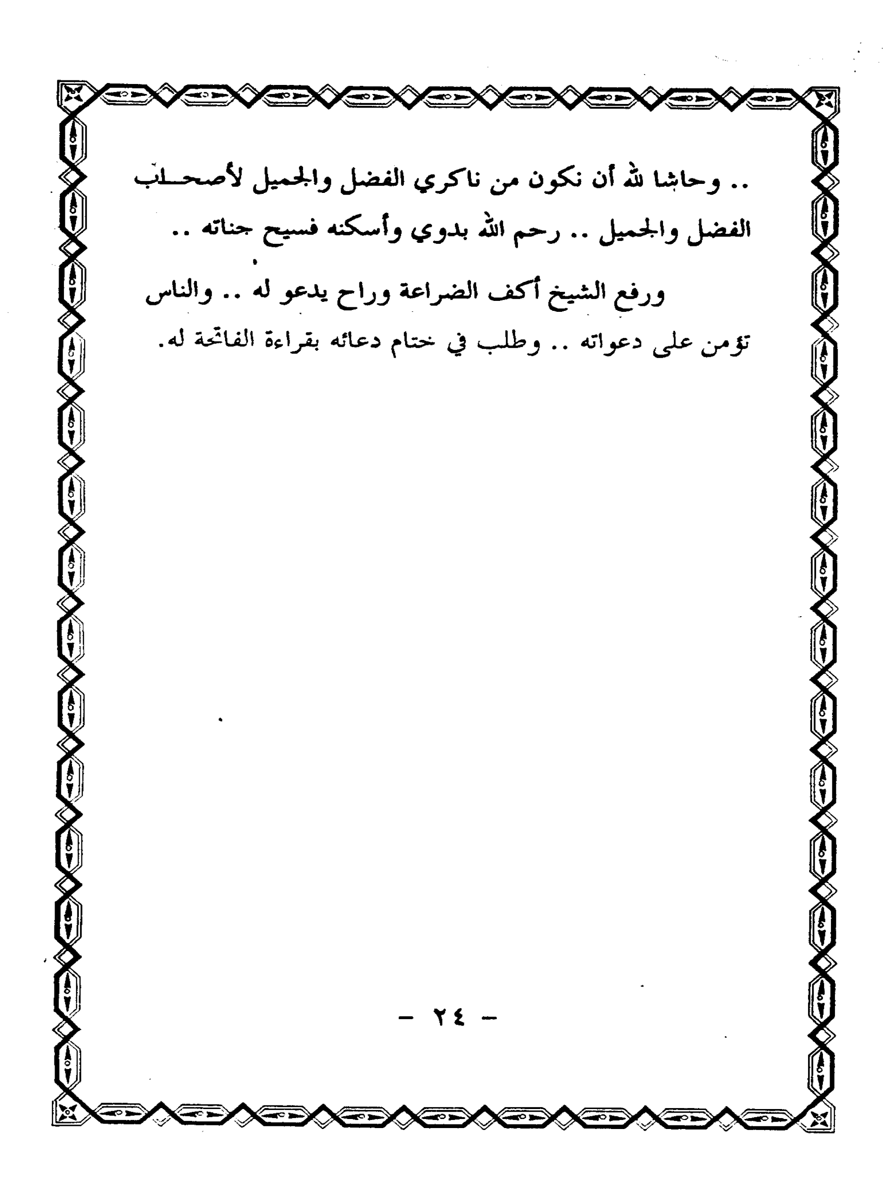
وهبه الله بسطة في الجسم وعافية تهد جبلا .. قالوا:

- إن الأسود تهابه وتجفل منه إذا مر على مقربة منها .. والأفاعي ترتد إلى جحورها مذعورة.

إيه .. كانت أيام !.. كان يأتينا بعد أن استقر لنا أمر الضيعة يشاركنا في الأفراح ، ويشاطرنا الأحزان .. يكون فاكهة المجلس بحكاياته التي تشبه الأساطير وتعليقاته ، ونكاته .. نفترش الصحراء بعد صلاة العشاء ، ويأتي أهل الضيعة كباراً وصغاراً، ويمتد السهر ونعيش مع أغانيه وأشعاره ، وعوده ، وحكاياته، يسرق عقولنا وقلوبنا حتى نفاجأ بطلوع النهار

.. ولو أراد المال - لصار أغنانا !.. ولو أراد الملك لتملك كل هذه الضياع ولهتفت له الناس وحملوه على الأعناق وصار زعيماً .. كان يرق لحالنا، فكانت ضيعتنا على أيامنا أفقر الضياع .. مرت علينا سنوات عجاف ضنت السماء علينا بالمطر، وأنكرت الأرض الزرع وجف الضرع وانتشر الجوع .. والجوع أفعى ..

يأتينا بالجمال والحمير محملة بالدقيق والعسل .. ويسوق لنا قطعان الماعز والإبل ، طوق أعناقنا بجميل صنعه ومعروفه .. ولا ينكر الفضل لأصحاب الفضل إلا كل جاحد



.. وحاشا لله أن نكون من ناكري الفضل والجميل لأصحاب الفضل والجميل .. رحم الله بدوي وأسكنه فسيح جناته ..

ورفع الشيخ أكف الضراعة وراح يدعو له .. والناس تؤمن على دعواته .. وطلب في ختام دعائه بقراءة الفاتحة له.

( ٥ )

قال رجل من البدو مقرب من الشيخ:

- من آن لآخر تنطلق إشاعة تؤكد أن بدوي لم يمـــت ميتــة طبيعية ..!!

زفر الشيخ وكأنه يطرد هماً .. وقال:

- روى لي بعض شهود العيان الثقاة: أن الفتوة وفارس التقيا خفية في خيمة أقيمت على الحدود الفاصلة بين الضيعتين .. وظلا لبضع ساعات في الخيمة وحدهما وأبرما اتفاقاً لم يعلم به أحد .. فتسرب إلى قلبي خوف وسرى في نفسي قلق .. فالمعروف أن الفتوة وفارس بينهما عداوات وثأرات قديمة ودماء أريقت من أيام الجد الألف فخشيت أن يكيدا بي ويدبران لي أمراً في الخفاء ويطمعان في ضيعتي فبعثت برسول إلى بدوي - فجاءني على عجل - وحكيت له عما نقل لي وعما يدور بخلدي، فضحك، وأنكر علي هذه الشطحات وقال: إن فارس والفتوة لا يمكن أن يلتقيا .. وأضاف

ليطمئنني: أنهما تحت أعين رجاله. و لم ينقل أحد من رجاله له هذا الخبر !

ومضى بدوي .. و لم يبدد الشك الذي في صدري، ولا الوساوس التي تعتمل في نفسي .. وتركني وأنا أفكر – في طريقة أدافع بها عن ضيعتي الواسعة وأفكر كيف أؤمن حدودها المترامية !

والحقيقة التي تكشفت لي – بعد فترة – أن الفتوة وفارس التقيا بالفعل .. بعد أن زاد نفوذ بدوي، وطبقت شهرته الآفاق – وزاد من فرض إتاواته بعد أن زاد الفقراء والمساكين الذين يقصدون بدوي ليطعمهم، ويكسوهم، ويؤويهم، فدبرا .. وخططا .. وقاما بشراء بعض رجاله، وانتقى الفتوة أجمل امرأة لعوب في ضيعته، وانتقى فارس أجمل امرأة داعرة في ضيعته، وكانا يعرفان عنه عشقه للنساء وهيامه بهن فدخلا إليه عن طريق هاتين المرأتين، .. استدرجاه بأنوثتهما الطاغية في ليل بهيم أسود حالك .. وغدرا به . وأجهزا عليه ..

ولما تناهى إلى أسماعنا الخبر، أقمنا الحداد لثلاث أيــــام متتاليات .. وبعثنا فرساننا ليلموا أشلاءه المبعثرة، وغســـــلناه، وكفناه، وأقمنا صلاة الجنازة، وشيعناه في جنازة مهيبة ودفنــــاه في مقابرنا .. بينما أقيمت الأفراح في ضيعتي الفتوة وفارس..!!

ومنذ أن مات بدوي، والفتوة وفـــارس يطيحـــان في خلق الله ، ولا يجدان من يوقفهما عند حدهما .. وكل منـــهما يبحث عن زعامة ! .. وهاهم فرسانهما كما ترون .. ينتشرون في فضاء الصحراء الواسع الفاصل بين الضياع والذي كــــان يسيطر عليه بدوي .. ولا يجرؤ أحد على اقتحامه .. وكـــأن كلاً منهما يحاول أن يؤكد أحقيته في هذا الفضــــاء .. وأنــــه وريث لبدوي.

- (( وهل نتركهم يا شيخنا ونقف مكتوفي الأيدي لنفاجــــأ بالفتوة أو بفارس مسيطراً على هذا الفضاء وناشراً فرسانه على حدود ضيعتنا فيتهددنا الخطر ! )).

**********************

ابتسم الشيخ وأغمض عينيه – وأطرق – وفكر ..

وقال – من الحكمة أن ننتظر، فالفتوة يطمع في هذا الفضاء، وفارس يطمع فيه، ونحن أيضاً ..

ولكننا نكتم رغبتنا وأطماعنا فيه .. فلا يمكن لفارس أن يتركه للفتوة، ولا يمكن للفتوة أن يتركه لفارس .. وكل منهما يحاول أن يختبر الآخر ويقف على قوته ويسبر نواياه، فها هو فارس يدفع بفرسانه ليختالوا في هذا الفضاء، والفتوة أيضاً يرسل فرسانه .. ربما تشتعل بينهما حرباً – فيقضيان فيها على بعضهما البعض وتكون فرصتنا.

************************

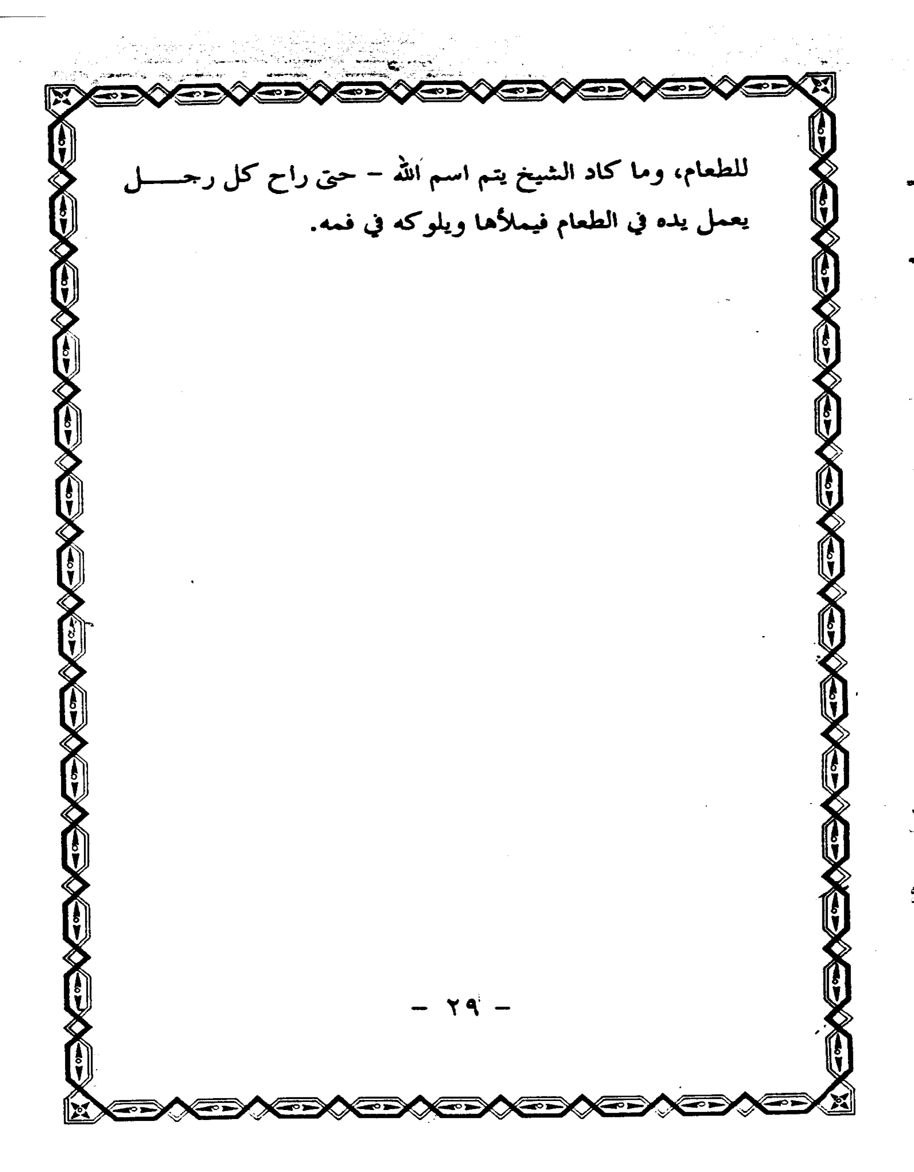
– (( وربما أيضاً يعلنان اللاحرب واللاسلم ! ))

– ساعتها يبقى الوضع على ما هو عليه.

وقال الشيخ وهو يلمح قدوم الخدم بالعشاء:

– لا تتعجلوا الأقدار، علينا أن نأخذ حذرنا، ونحتاط، وننتظر الفرصة التي لن ندعها تفلت منا وتتسرب من بين أصابعنا ..

وشمر عن ساعده والتف كل أربع رجال حول ((صينية))



للطعام، وما كاد الشيخ يتم اسم الله - حتى راح كل رجـــــل يعمل يده في الطعام فيملأها ويلوكه في فمه.

. . وما كاد ينتهي الرجال من الطعام حتى جاء الخدم بالأباريق النحاسية المملوءة بالماء والطسوت الفارغة، يصب الخادم الماء على يد سيده فيغسلها، ويغسل فمه ثلاثاً، وينفض بيده فيتطاير ما تبقى عليها من رذاذ الماء .. ويمسح فمه بكم جلبابه وهو ينهض لاهجاً بحمد الشيخ وداعياً الله بأن يوسع في رزقه ويجعل ديوانه عامراً .. وريثما يفرغون من تناول الطعام .. يأتي الخدام بأطباق الفاكهة .. فيأكلون .. ويحمل الخادم إبريق القهوة ويملأ لهم الفناجين ويأتي الشعراء والمداحون والمنشدون والمغنون وضاربو الدفوف وعازفو العود .. ولكن الشيخ بدا مشغولاً .. وانفرد بمستشاريه .. وأحسوا بأن ما يجري بين فارس والفتوة على الحدود بدأ يقلق الشيخ !

وطال الاجتماع .. والناس في الخارج تترقب .. وتنتظر .. وخرج الشيخ .. فاغتبط الناس وهم يلمحون بريق فرح في عينيه وقال:

– قربوا من مقعدي أحبائي من البدو !

.. اغتبط البدو، ومضوا من الصفوف الخلفية، وتخطوا الرقاب، قفزاً وعدواً، تبوءوا في مجلسهم المقاعد الأولى القريبة من الشيخ ..

راح الشيخ يداعبهم ويلاطفهم، ويتبسط معهم في الحديث، وفاجأهم بقوله:

- ما أخبار أختكم بدوية ؟!

.. وقعت الكلمة على آذانهم كالصاعقة .. وأطرقوا رؤوسهم خجلاً وقالوا تبرأنا منها ، وأسقطناها من حياتنا !

قال الشيخ:

- مسكينة .. حظها العاثر أوقعها على طريق الفتوة .. ولما أخذ منها غرضه رماها ليتلقفها فارس بمكره ودهائه.

- وصمت قليلاً .. وقال:

- رحمة الله عليك يا بدوي .. لو كنت حياً ما كان حدث لبدوية ما حدث .. ونظر إليهم ليرى أثر كلامه على وجوههم .... وأضاف:

– يجب أن تعيدوها إلى حظيرتكم .. ستسألون عنها يوم الحساب .. وأنا أيضاً سأسأل عنها .. هل تعتقدون أنها تزوجت بفارس زواجاً شرعياً ..؟!

.. زواجها باطل ! .. باطل !

تدخل أحد مستشاري الشيخ وقال:

– مشكلة البدو يا شيخنا أنهم تفرقوا بعد بدوي وذهب ريحهم، كانوا يعتمدون على بدوي في كل شيء.

قال الشيخ:

صلوا أختكم بدوية وارموا لها حبال الود .. وقولوا لها الشيخ يقرئك السلام .. ويقول بأن زواجك من فارس باطل ! .. باطل!

وخرجوا من عند الشيخ .. وعزموا بأن يرسلوا نساءهم إلى بدوية ليقنعوها بالحكمة وبالموعظة الحسنة فإن لم تقتنع – سيكون لهم رأيٌ وموقفٌ آخران.

( ٧ )

احتفت بدوية بقريباتها البدويات، وجاء الأولاد ليقبلوا أيادي الخالات .. كان الأولاد قد صادوا سمكاً كثيراً، قدموا للخالات سمكاً مشوياً طازجاً .. وخبزاً طرياً أتوا به من ضيعة فارس، وخضراوات وفاكهة أتوا بها من ضيعة الفتوة .. أكلت الخالات بنهم وتلذذ ..فالخالات يعشن أياماً عجافاً، وحياة بائسة، وبيوت الشَّعر التي يقمن فيها تفضح بؤس الحال، والخيام التي يضربنها في الصحراء خاوية من الداخل إلا من متاع حقير ..

ربما نظرن لأختهن بدوية بحسد، وتمنين في أعماق أنفسهن أن ينعمن ولو بقليل مما تنعم به بدوية .. فكان فارس قد فَرشَ بيت بدوية بأجمل السجاجيد واشترى لها أرائك وأسرة وأهداها عباءات جميلة، وملابس داخلية أنيقة، وبدت بدوية بالعباءة الحرير المطرزة والموشاة بالخرز والترتر والدانتيل كست الحسن، وجلست بين أخواتها العجفاوات كحورية من الجنة .. راحت الأخوات يشكين شظف العيش وعنت الصحراء وضن

السماء بالمطر وراحت بدوية تحدثهن بدورها عن عنت الفتوة، وصلفه وغروره، وكيف غرر بها واستدرجها إلى جب مظلم لم ينقذها منه إلا فارس، وأخذت تثني على مروءة فارس وشهامته ونبل أخلاقه.

عندئذٍ قاطعتها إحدى الأخوات قائلة:

-لكن الشيخ يقول بأن زواجه منك باطل !

.. كالصاعقة نزلت الكلمة على قلبها، فأحست به يرتجف وبأطرافها ترتعش، وبالدم يتدفق في عروقها فتنفر، وعكست ملامحها معاني متضاربة ومتناقضة، فقالت باضطراب بائن

كيف ؟!

– يقول أن ديننا نهى عن هذا النوع من الزواج !

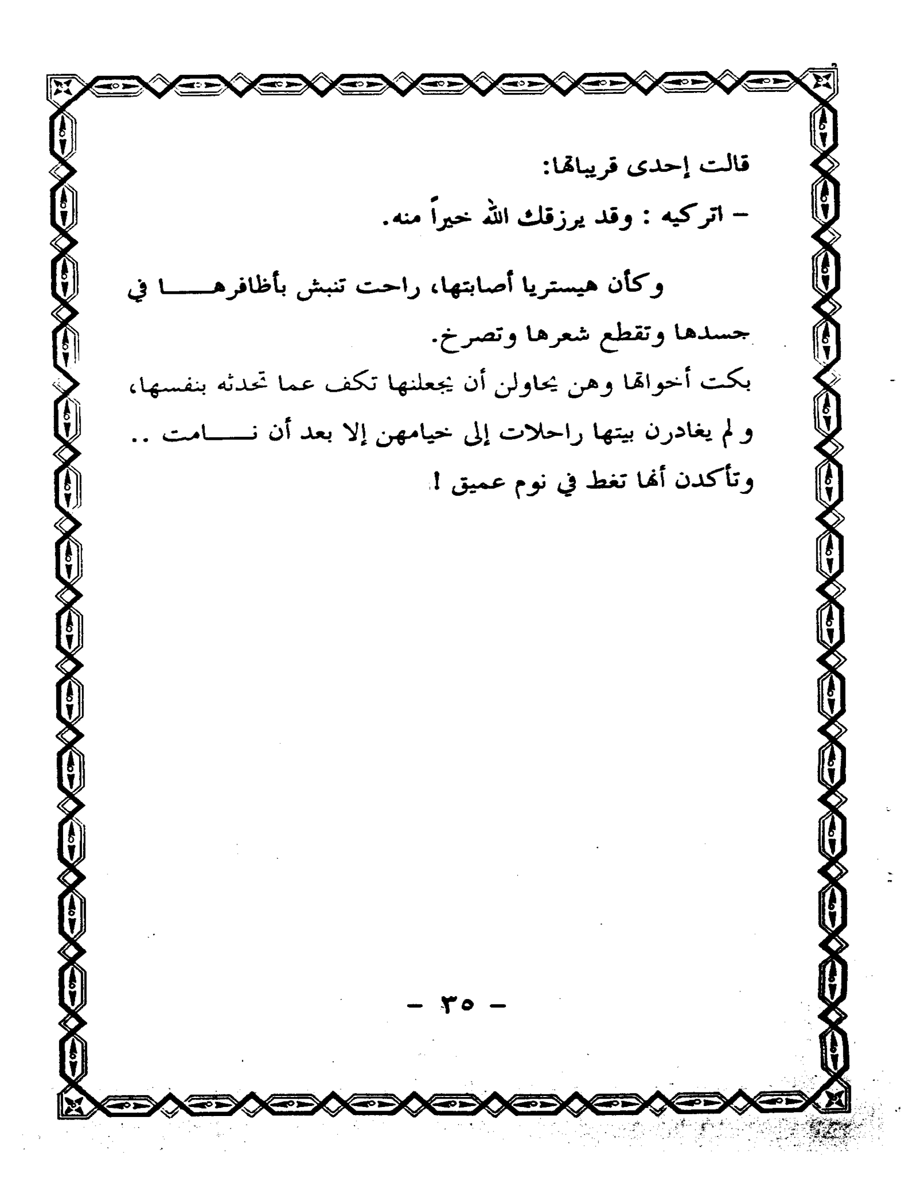
– أليس على ديننا ؟

– بلى .. ولكنهم يأخذون من الدين أشياء، ويدعون أشياء !

.. لطمت صدرها وندبت قائلة:

– يا ويلتي !.. يا ويلتي !..

نزلت الدموع حارة ساخنة ..



قالت إحدى قريباتها:

- اتركيه : وقد يرزقك الله خيراً منه.

وكأن هيستريا أصابتها، راحت تنبش بأظافرهـــــا في جسدها وتقطع شعرها وتصرخ.

بكت أخواتها وهن يحاولن أن يجعلنها تكف عما تحدثه بنفسها، ولم يغادرن بيتها راحلات إلى خيامهن إلا بعد أن نــــامت .. وتأكدن أنها تغط في نوم عميق !

( ٨ )

كانت بدوية قد بيتت النية وعقـدت العـزم علـى مواجهة فارس، لابد أن يعقد عليها عقدا صحيحا .. ولن يتـم العقد إلا بحضور الشيخ وأخوالها وكل من يمت لهـا بصلـة قرابة..!

.. نظرت إلى أولادها من فارس .. فهم أقـرب إلى قلبها من أولادها من الفتوة الذي لا يعترف بهم، فارس اعترف بأولاده، وأطلق عليهم الأسماء، يكسوهم ويطعمهم ويعلمهم، يداعبهم ويحنو عليهم، تعلقوا به وينتظـرون مجيئـه بلهفـة، ويتسابقون لنيل رضاه وخطب وده.
الأولاد الذين جاءوا من صلب الفتوة مهملون حفاة وأشـباه عراة ارتضوا بالرعي وقنعوا بالصيد ولا تدري بدوية .. لمـاذا تميل إلى أولاد فارس دون أولاد الفتوة، و لم تجد عناء كبـيرا في الوصول إلى إجابة مقنعة وهي تسترجع حياتها مـع الفتـوة، وحياتها مع فارس وما تركه الفتوة من أثر سيئ، لوث سمعتـها،

وَمرَّغ شرفها في الوحل، خان وغدر .. أما فارس أنقــذ وأحيــا .. أعاد الثقة وحنا وطبب وداوى.
قالت لنفسها:
- مستحيل أن يكون زواجي بفارس باطلاً !
فارس الطيب الحنون .. لا أصدق .. قد تكون مكيــدة مــن أخواتي البدويات !... رباه .. سامحني يا رب.
ولِمَ تكيد أخواتي لي؟ .. ربما تكون خديعة ووشاية، الذيــن يحقدون على فارس كثيرون، والشيخ واحد منهم .. وأين كان الشيخ عندما غدر بي الفتوة في ليل هيم، أليس كبيرنا، وعمنــا كما يدعي .. ظل الفتوة يعاشرني معاشرة الأزواج لســنوات وهذا زنا فاضح و لم يتحرك للشيخ ساكن .. وفارس تزوجــني .. ولماذا يكون زواجي به باطل وهذا النوع من طقوس أهــل ضيعته؟.
- لماذا يغض الشيخ الطرف عن ارتكاب الفتوة معي جريمــة الزنا ويثار وتتحرك غيرته لأن فارس قد اقترن بي واعــترف بي زوجة وبمن يأتون من صلبه أولاداً له !

***************************

و لم يمض التفكير بها طويلاً .. حتى هلّ عليها فـارس، لاح لها من بعيد ممتطياً جواده، و لم يزل قلبها يرف كلما هــلّ على جواده - كالعذراء تحس حُمرة الخجل، وخفر الصبايـا ! .. رأت الأولاد يعدون ويتسابقون .. يترل عن جواده، يرتمون في أحضانه، يعانقهم، يقبلهم، يشير على تابعيــه أن يوزعــوا عليهم الهدايا، يفتحون هداياهم، يفرحون بها، يجرون إلى أمهم ويطلعونها على ما أتى به فارس الوالد .. وقبل أن يصل إليــها .. في كل مرة يخرج من جيبه - سواراً من الذهب أو خاتمــاً من الألماظ، فستاناً قشيباً، أو حذاءً جديــداً، لا تذكــر أنــه دخــل عليها أبداً ويده خالية من هدية ثمينة، تحفر في قلبها، وتخلــد ذكراه في غيابه الذي يطول أحياناً .. في هذه المرة .. بســط أمامها - قمصاناً للنوم، مختلفة ألوانها وأشــكالها وأطوالهــا، نظرت إليها، وبسرعة كانت تتخيل نفسها في كل قميــص .. عند قميص قصير .. بالغ القصر .. استقر نظرهــا عليــه .. وحانت منها التفاته إلى فارس الذي كان هو الآخر ينظر لنفس

القميص ولها، ولما رأت في عينه رغبة – عضت على شـــفتها السفلى، وتدللت، وأمسك بالقميص في يدها وقالت بغنج:
– مِنديل يا فارس !!

فرصتك يا بدوية – قالتها لنفسها – وهي تلمـــح في عينيه رغبة جامحة، عمدت إلى إبراز أنوثتها الطاغية، وهيجـــت الكامن منها، تعرف تماماً مناطق الإغراء القوية – التي بهـــا – تجعل فارس كالخاتم في إصبعها .. تفننت كما لم تتفنـــن مـــن قبل، وبدت في القميص القصير غاية في الروعـــة والجمـــال والفتنة، والإغراء، أنثى كاملة الأنوثة .. كانت قد خططـــت ودبرت – وعرفت كيف تفاتحه – والوقت الذي لا يرفض لهـــا فيه طلبا .. !

.. فمه في فمها يمص عصير الأنوثة، يحاول أن يطوقها، تنفلـــت من بين ذراعيه .. وحينما حاول أن يمسك بها ثانية قالت:
– أرجوك اتركني !!

جلست على السرير، وجلس بجوارها – كانت قد غيرت من ملامحها وكستها بكساء الجدية، وتزيت بزي الصرامة، بحجت

في لحظة أن تتحول من الضد إلى الضد، لفت مائـــة وثمـــانين درجة استطاعت في لحظة أن تنـــزل بدرجة حرارتها إلى الصفر أو دون الصفر، في لحظة تجمدت المشـــاعر، بخـــار الأنوثـــة المتصاعد تحول إلى بخار للوح ثلج .. أحس ببرودة أطرافـــها، وتبلد مشاعرها المباغت.

- بدوية .. ماذا دهاك ؟!

- أرجوك لا تقربني !

بوغت بكلماتها، حاول أن يتماسك.

- من قال هذا الهراء ؟!

نحبت، ولوت جذعها على السرير، ومددت ســاقيها الممتلئتين العاريتين، وأخفت وجهها بين راحتيـــها ووضعـــت ساقا فوق الأخرى لتظهر فخذيها وردفيها .. راحـــت يـــده تتحسس جسدها المتوهج المتألق، أمسكت يده ونظرت إليـــه وفي عينيها دموع وقالت في صوت به نبرة حزن وشعرة دلال:

- رغم حبي لك، وتعلق قلبي بك، لا أســـتطيع أن أســـلمك جسدي .. بعد أن أكدوا لي أن زواجنا باطل !

– مازلت تكررين هذا السخف، من قال هذا الخرف ؟!
– أخواتي أكدن لي على لسان الشيخ !
عندما سمع اسم الشيخ .. انتفض كمن لدغه عقرب
– الشيخ يريد أن ..
قاطعته قائلة:
– لا طاقة لي بالخلافات التي بينكم، فأنتم على مدى سنوات طويلة .. ربما بطول الزمن .. تتعاركون وتتصالحون، تتفقون وتختلفون .. أنا ما يهمني علاقتنا معا، زواجنا، أولادنا، حياتنا، مستقبلنا.

.. أطرق فارس ، وأخذ يفكر ، ولما رآها ترتدي ملابسها .. تذكر أنه لا يستر بدنه إلا قليل الثياب. فارتدى هو الآخر ملابسه، وقال وهو يمد يده مصافحا: أمهليني بعض الوقت .. وامتطى جواده .. ومضى .. وبعض غضب يتملكه.

( ٩ )

همس الشيخ في أذن صديقه شكرون وقال:

- ما عادت وصفاتك تجدي نفعا معي يا شكرون ..

لا تقل السن يا صديق فبدوي رحمة الله عليه. كان قد جاوز المائة .. ويمارس حياته مع النساء طبيعيا وكأنه في شرخ الشباب .. وأنا مازلت في الثمانين - وأعرف ناسا في ضيعتي يتخطونني في العمر ويتزوجون الصبايا وينجبون .. صمت صديقه شكرون وقال:

- القياس هنا غير دقيق يا سيدي .. فبدوي بدوي .. يعيش في الصحراء .. وليس هناك ما يعكر صفوه ويشغل باله .. لا تجارة يخشى كسادها ولا أموالا يخاف ضياعها .. لا يتقيد بامرأة بعينها سمراء أو شقراء ، بدينة أو نحيفة ، بكر أو ثيب ، ولا يعترف بولد صحيح أو معتل ، لا ضيعة تشغله ولا إمارة تأخذه .. الفكر والهم يا سيدي هما السبب !!

.. والذين يعيشون في ضيعتك وتخطوك في العمر ما الذي يشغل بالهم ؟! .. ألم يلقوا بأحمالهم عليك ؟!.. إذا جاءوا

تطعمهم وإذا تعروا تكبوهم وإذا مرضوا تداويهم فلا تشغلهم لقمة العيش ولا يقلقهم حاضر أو غد ، ينام الواحد منهم قرير العين آمنا واثقا أن عينك ساهرة تحرسه وترعاه ..

وبعد شد وجذب في الحوار قال شكرون:

- أرى يا سيدي أن تغير عتبة دارك وتمتطي فرسة جديدة ، وكأن كلام شكرون صادف هوى في نفس الشيخ .. فقال ضاحكا: إذا يجب أن نحيل فرسة من الأفراس الأربعة إلى المعاش!.. وأعتقد أن هذا لن يتم بسهولة ..

قال شكرون : نعم .. كنا فيما مضى نحيل اللاتي انحدرت من فرع صغير إلى المعاش .. فكان أهلها يفرحون بأموال يأخذونها ودورا يقيمون فيها .. أما هذه المرة فالأربعة ينتمين إلى جذور عميقة وأفخاذ كبيرة لا ينقصهم المال ولا يعوزهم الجاه ولا الحسب ..

- دبرني يا شكرون ؟!

.. وكأن شكرون قد فكر من قبل ودبر وقال:

– لا تؤاخذني يا سيدي .. إذا قلت إن السيدة فهد ه تخطت سن اليأس من سنوات .. وأهلها يحبون التباهي والتفاخر .. فلو أعلنت أن صقر بكر أولادك وابن السيدة فهدة سيكون خليفتك ويقوم مقامك بعد عمر طويل ، ستنتفخ أوداجهم ، ويطيرون من الفرح والسرور ..

المسالة لا تحتاج إلا أن تستدعيهم وتعلن لهم أنك اخترت ابنك وابنهم صقر ليكون أميرا على الضيعة من بعدك وإعلان هذا على الملأ يعوضهم عن تطليق ابنتهم أم الأمير المنتظر !

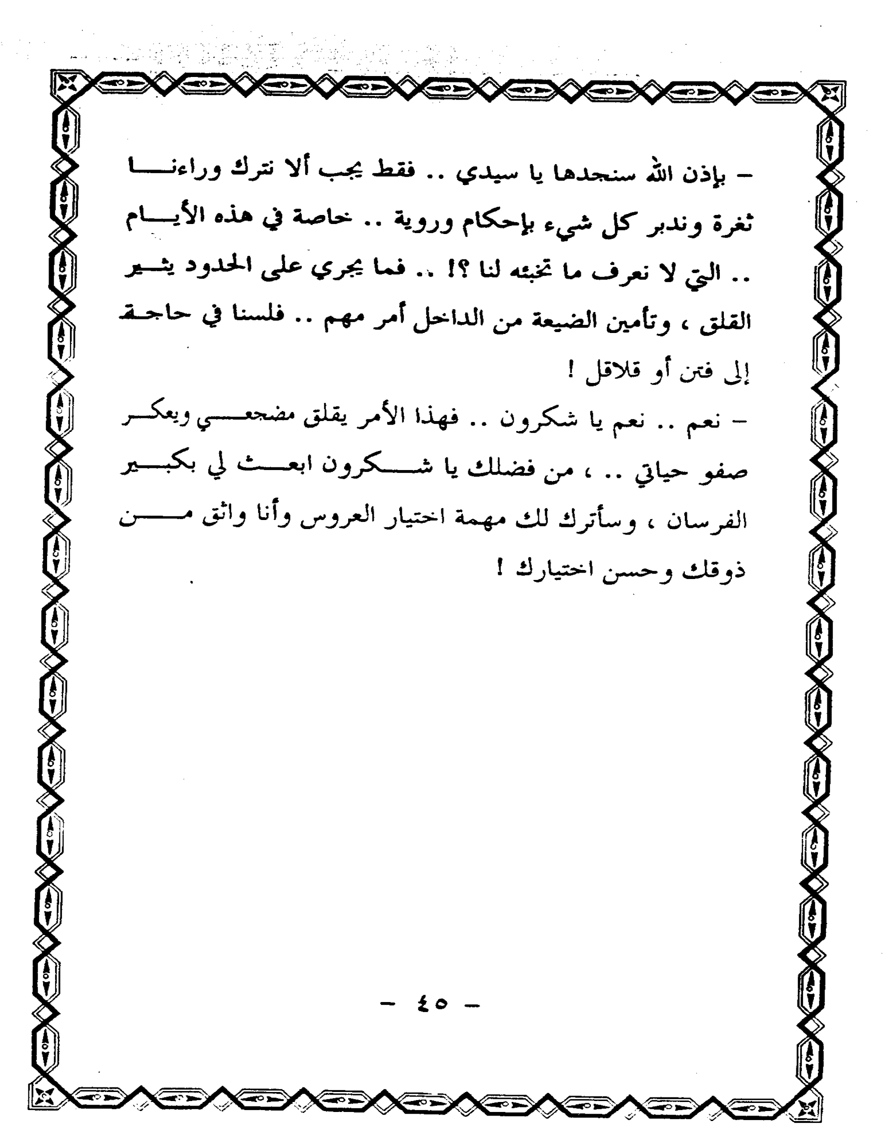
.. سر الشيخ بهذا الرأي وقال:

– نعم الرأي قلت يا شكرون .. إنك فعلا داهية.

– خدامك المطيع يا سيدي.

ضحك الشيخ وقال:

– ألا تلاحظ أننا فكرنا بالمقلوب ..؟!.. فكان من الأولى أن نفكر في المهرة الجديدة .. ونبحث عنها .. فربما لا نجد من تستحق كل هذه التضحية ..



**– بإذن الله سنجدها يا سيدي .. فقط يجب ألا نترك وراءنا ثغرة وندبر كل شيء بإحكام وروية .. خاصة في هذه الأيام التي لا نعرف ما تخبئه لنا ؟! .. فما يجري على الحدود يثير القلق ، وتأمين الضيعة من الداخل أمر مهم .. فلسنا في حاجة إلى فتن أو قلاقل !**

– نعم .. نعم يا شكرون .. فهذا الأمر يقلق مضجعي ويعكر صفو حياتي .. ، من فضلك يا شكرون ابعث لي بكبير الفرسان ، وسأترك لك مهمة اختيار العروس وأنا واثق من ذوقك وحسن اختيارك !

( ١٠ )

قال الشيخ لكبير الفرسان :

هات ما عندك .. فأنا أريد أن أسمعك وأعرف كل التفـاصيل ودقائق الأمور عظائمها وصغائرها .. لا تـترك شـاردة ولا واردة إلا وتحيطني بها علما ..

قال كبير الفرسان :

– قسمت فرساننا أقساما ، فئات ومجموعات ولكل مجموعـة قائد محنك .. ونشرتهم بحيث يغطون حدود الضيعة كلـها .. وجعلت أقوى الفرسان وأمهرهم على حدودنا مع الفتوة ومـع فارس وهناك على الحدود عيون ساهرة .. لا تنام .. وأطلقت العسس من رجالنا ومن البدو الذين جندتهم .. يعسـون في الصحراء و يتسللون لضيعتي الفتـوة وفـارس وينقلـون لي أخبارهما أولا بأول ..

لا أكتمك سرا يا سيدي إذا قلت أن فرسانهم يفوقوننا قوة وعددا .. ولا قدر الله لو حدث بينهما تقـارب واتفقـا لسيطرا على الفضاء بسهولة ويسر .. ويشكلان خطرا داهمـا

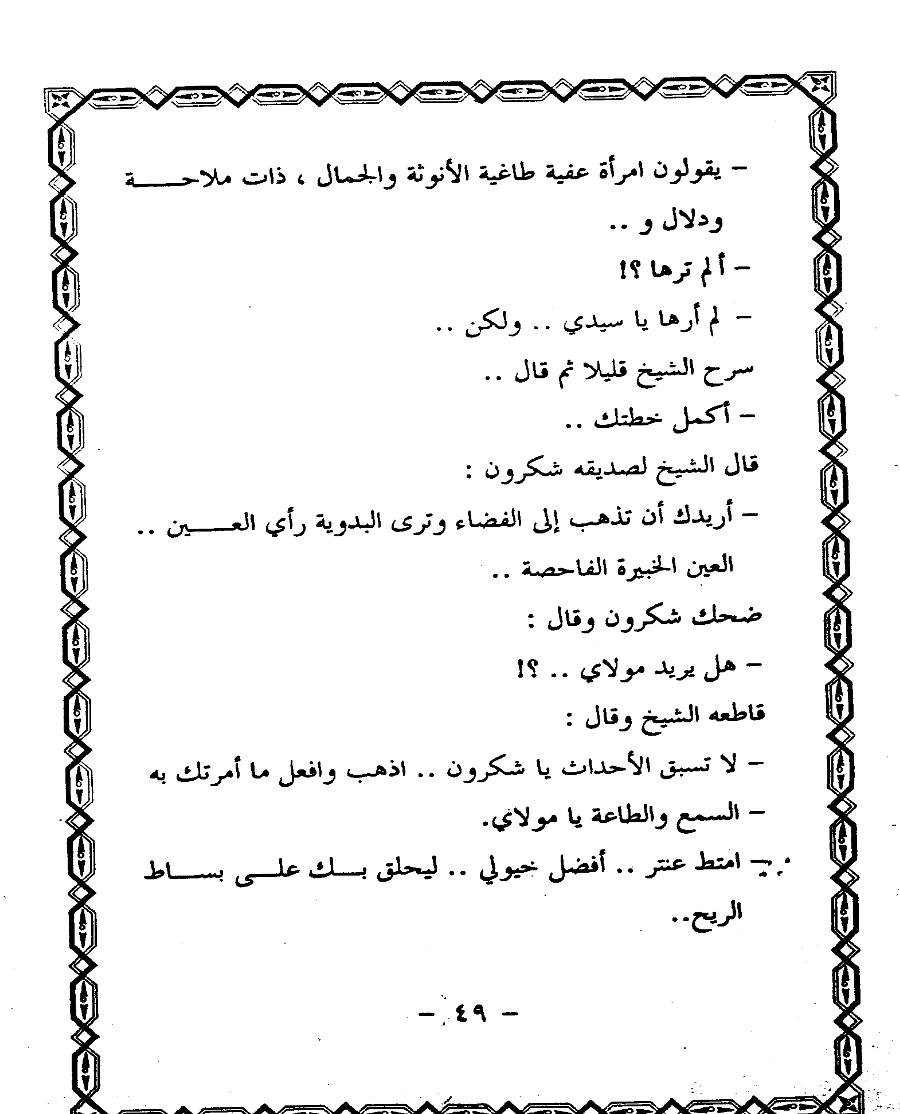
على ضيعتنا .. وساعتها سنضطر آسفين للاستعانة بأصدقائنا في ضيعة الأبيض، ولكن الرسائل التي تأتينا تؤكد أن الهوة بينهما تزداد اتساعا ويزداد التنافر والشقاق والخلاف .. وأحاول عن طريق عملائي هنا وهناك .. أن أؤجج الصراعات القديمة بينهما وأنفض التراب عن الثأرات التاريخية .. ننشر الفتن بقدر ما نستطيع .. ونحول الصراع بينهما إلى صراع عرقي .. وعلينا أن نتحرك في أكثر من اتجاه .. على الأقل لتأمين ضيعتنا.

**********************

نهيب بالأئمة في المساجد بأن يحيوا فريضة الجهاد ويؤهلوا الناس للذود عن الضيعة المقدسة بالنفس والمال.

.. نحاول أن نسيطر على البدو الذين يعيشون في هذا الفضاء .. وبالذات تلك المرأة .. التي ارتبطت بالفتوة في علاقة غير شرعية وأنجبت منه أولادا .. وارتبطت بفارس أيضا وأنجبت منه هو الآخر أولادا ..

قاطعه الشيخ قائلا :
كان كبير البصاصين قد أبلغني بأخبار هذه المـــرأة وقـــدم لي تقريرا كاملا عنها .. والذي لا تعرفه أنت أنها تكره الفتـــوة كراهة الموت.
- ولكن قلبها معلق بفارس ..
وبعثنا بمن يحاول أن يوقع بينهما وينهي هذه العلاقة.
- أتمنى أن ينجح من أرسله مولاي في مهمته .. وأتمنى أن يوفق مولاي في وضع خطة للسيطرة على هذه المرأة.
وبينما كان كبير الفرسان - يشرح خططه للسيطرة على هـذه المرأة .. ويضع أمام الشيخ كل الاحتمالات .. كان الشـــيخ يشرد في هذه المرأة البدوية .. وقال ..
- صفها ؟!
- أصف من يا مولاي !
- البدوية.
ضحك كبير الفرسان وقال ..



- يقولون امرأة عفية طاغية الأنوثة والجمال ، ذات ملاحـــة ودلال و ..

- ألم ترها ؟!

- لم أرها يا سيدي .. ولكن ..

سرح الشيخ قليلا ثم قال ..

- أكمل خطتك ..

قال الشيخ لصديقه شكرون :

- أريدك أن تذهب إلى الفضاء وترى البدوية رأي العـــين .. العين الخبيرة الفاحصة ..

ضحك شكرون وقال :

- هل يريد مولاي .. ؟!

قاطعه الشيخ وقال :

- لا تسبق الأحداث يا شكرون .. اذهب وافعل ما أمرتك به

- السمع والطاعة يا مولاي.

- امتط عنتر .. أفضل خيولي .. ليحلق بـــك علـــى بســـاط الريح..

- لا تقلق يا مولاي ..! .. سآتيك بخبرها قبل أن يرتد إليك طرفك ..!

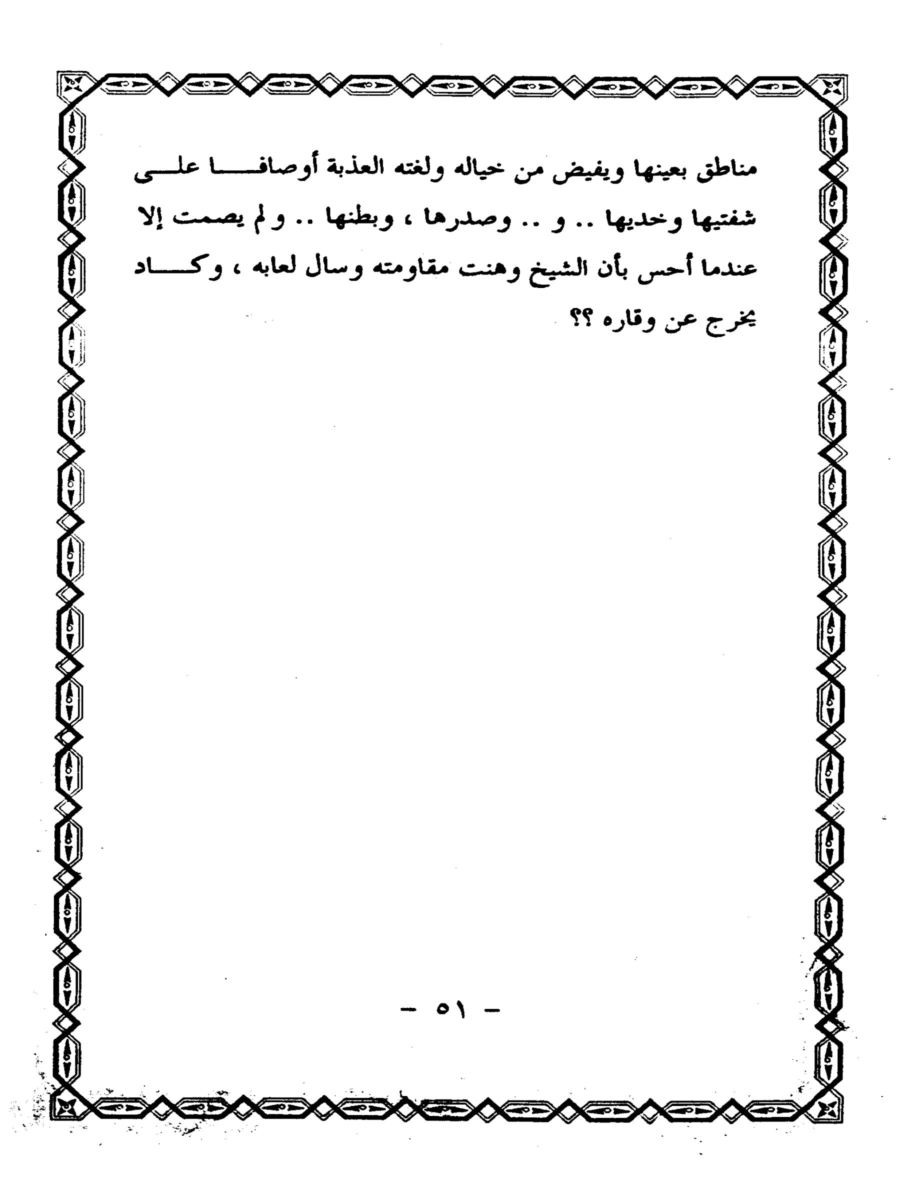
كان الليل قد دخل عندما عاد شكرون وقال لمولاه الذي بش في وجهه عندما رآه :

- امرأة دون الثلاثين يا مولاي أو أكثر قليلا ، يفوح منها عطر وأنوثة .. عيناها سوداوان واسعتان ، نسيم البحر بسمتها ، تغريد الكروان ضحكتها ، حورية من الجنة ، شعرها كالليل سواده ، وثغرها خاتم سليمان ..مزمار داود ، عنقها عنق الغزلان ، عودها عود البان ، شامخة كالنخلة ، كانت على شاطئ البحر تعلم أولادها العوم والصيد اختبأت خلف تبة ، طوقت خصرها الناحل بيدها .. فبدا لي فخذها الممتلئ والمنساب بعذوبة ورقة كعود مرمر ..

قال الشيخ :

لعنة الله عليك يا شكرون .. أكاد أشم أريج أنوثتها ..

ضحك شكرون وراح يزيد في وصف ردفيها وساقيها الممتلئتين وكأنه قرأ ما يجول في خلد الشيخ .. فراح يركز على



مناطق بعينها ويفيض من خياله ولغته العذبة أوصافـــا علـــى شفتيها وخديها .. و .. وصدرها ، وبطنها .. ولم يصمت إلا عندما أحس بأن الشيخ وهنت مقاومته وسال لعابه ، وكـــاد يخرج عن وقاره ؟؟

## ( ١١ )

**سمعت بدوية طرقا على الباب ، نهضت لتفتح ، وما كادت تفتح الباب حتى وقع نظرها على الشيخ ..**

قالت وهي تجري لتبحث عن غطاء لشعرها :

- تفضل .. تفضل يا شيخ .. زارنا النبي ..!

يا ساتر ، قالها الشيخ

أول غطاء رأس صادفها تناولته ، سترت به رأسها.

- خطوة عزيزة يا شيخنا ، يا ألف أهلا وألف مرحبا ..

بالغت بدوية في الاحتفاء بالشيخ ، وأوسع لها الشيخ صدره ، حكت له عن حياتها منذ خروجها من الخيمة إلى ضيعة الفتوة وهي صبية ليوقعها حظها العاثر على طريقه ليجردها من أعز ما تملك.

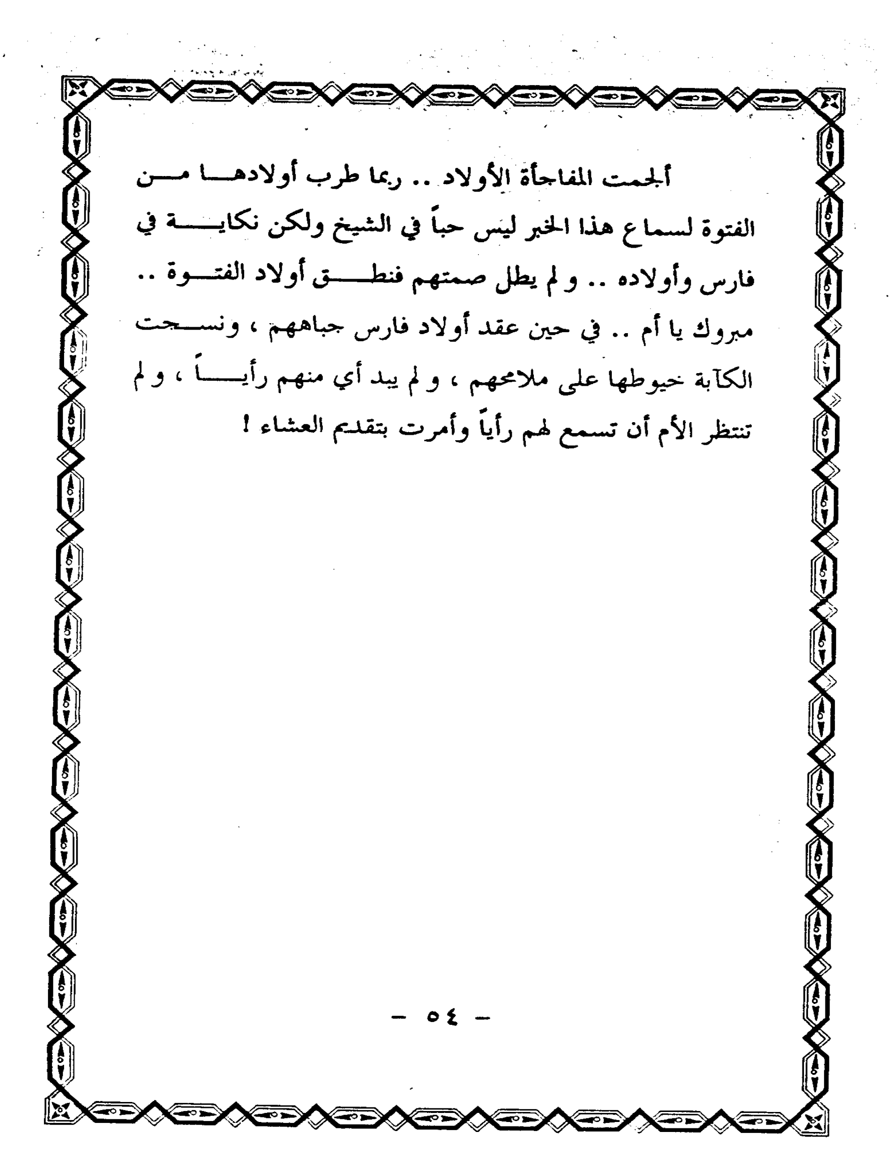
الشيخ ينصت لها باهتمام ، والدموع تنهمر من عينيها ، وكأنها عاصية جلست بين يدي قسيس .. أحست بيده الحانية .. تشق صدرها برقة و يمسك قلبها بين أصابعه ويغسله

بماء الثلج والمطر .. أحست أنها بين اليقظة والنوم ، بين الوعي واللاوعي ..

ساعة ، ساعتان ، ثلاث ساعات .. لا تدري كم من الوقت انقضى .. ربما حلم لذيذ .. وطويل ..

اعترفت .. نطقت جوارحها ، لا تتذكر أن لسانها كان يتكلم ، لكنها تشعر بأن نفسها تبوح ، وعينيها تنطقان ، تجلس عند قدميه أو بين ذراعيه .. أو ربما ترقد في قلبه .. مسح الشيخ خطاياها .. وغسلها من ذنوبها .. ربما جردها من ملابسها وألقاها في بئر زمزم ثم أخرجها وطاف بها حول الكعبة وعادت كيوم ولدتها أمها ..

الأولاد خارج الديوانية المغلقة على الشيخ وأمهم ، نحروا خروفاً وأوقدوا ناراً ، وفرغوا من شي الخروف وينتظرون خروجهما.
تخرج الأم وتنادي على الأولاد ، يأتون فرادى وجماعات .. تعلن فيهم أن الشيخ طلب يدها للزواج !!



ألجمت المفاجأة الأولاد .. ربما طرب أولادها من الفتوة لسماع هذا الخبر ليس حباً في الشيخ ولكن نكاية في فارس وأولاده .. ولم يطل صمتهم فنطق أولاد الفتوة .. مبروك يا أم .. في حين عقد أولاد فارس جباههم ، ونسجت الكآبة خيوطها على ملامحهم ، ولم يبد أي منهم رأياً ، ولم تنتظر الأم أن تسمع لهم رأياً وأمرت بتقديم العشاء !

انقضت الأسابيع ومرت الشهور مرور السحاب .. وبدوية تعب السعادة عباً ، وحينما تكور بطنها ، طار الشيخ فرحاً ، وضاقت الصحراء الواسعة عن استيعاب فرحته .. بشرته القابلة بولد .. تعلق الشيخ بالولد ..

– سعد .. سنسميه .. سعد.

– زين ما اخترت يا أبا سعد.

قبلها .. أحست بطعم الحنان والامتنان ..

انشغلت بدوية بسعد عن اخوته من الفتوة ومن فارس فأحسوا بغيرة منه.

والشيخ الذي كان يكتم بغضه لأبناء فارس وأبناء الفتوة أعلنه صراحة ..

واقتطع الشيخ جزءاً من الفضاء الذي على تخوم ضيعته وابتنى فيه بيتاً رحباً ليقيم فيه سعد مع أمه .. ولأخوته الذين سيأتون من بعده .. على قدر مساحة البيت الرحبة كانت مساحة الود للشيخ في قلب بدوية.

انزوى أولاد بدوية غير الشرعيين من الفتوة في مساحة ضيقة كان الفتوة قد اقتطعها لبدوية من الفضاء الكبير على حدود ضيعته ليلتقي بها خلوة ، وكان قد بنى لها كوتاً صغيراً ، ضئيلاً ، وبمرور الوقت ابتنى الأولاد أكواتاً وعششاً ودوراً صغيرة .. وأحس أولاد الفتوة غير الشرعيين بأن هذه المنطقة ملك لهم وحدهم فهم في قرارة أنفسهم يحسون بأنهم امتداد للفتوة ولضيعته.

أما فارس — فكان قد خطط من قبل .. واختار البحر وابتنى لبدوية بيتاً أنيقاً على البحر ، وأثثه برياش فاخر ، وعشق أولاده البحر ، وابتنوا دوراً على البحر ..

وها هي بدوية – تحلم – بأن تبسط جناحيها .. وتقوي نفوذها .. شيئاً فشيئاً يا بدوية .. وتمتلكين ضيعة. فها هو الشيخ يهب لها بيتاً رحباً ومساحة لا بأس بها بإضافتها إلى المساحات التي وهبها لها الفتوة من قبل تصبح ضيعة صغيرة ويشقها البحر !

تنظر بدوية إلى المساحات الشاسعة في الصحراء ، وتحلم بأن أولادها من الفتوة كبروا وصاروا رجالاً ، ويتجهون في البناء صوب ضيعة الفتوة وأولادها من فارس يتجهون بامتداد البحر وأولادها من الشيخ يتجهون بمنازلهم صوب ضيعة الشيخ !

بدأت الفكرة كحلم – راود بدوية مراراً – وهي تجلس وحيدة معظم الوقت تحلم بضيعة – تصبح فيها الأميرة .. الناهية ..

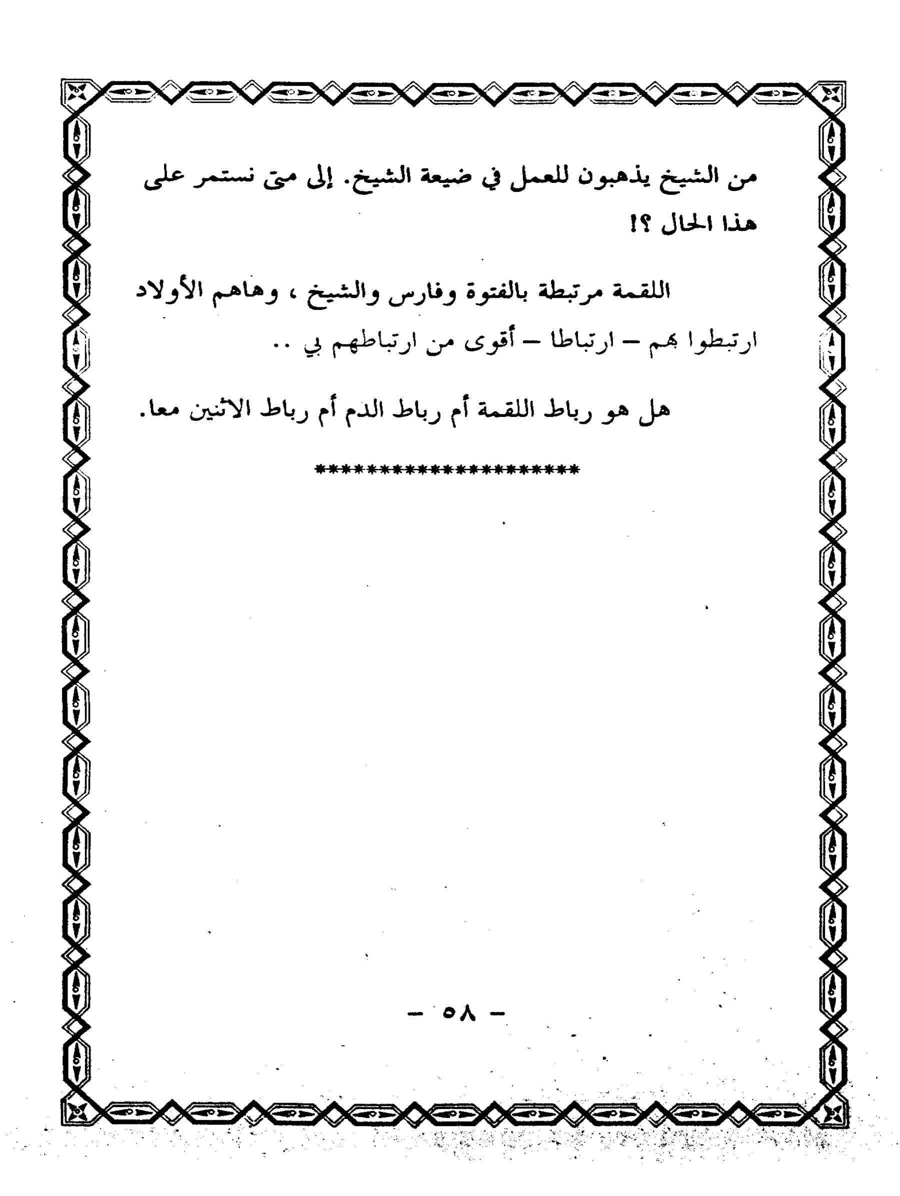
تقول لنفسها :

– المال ! .. إنه المال !!

الأرض التي تركها لي الفتوة والأرض التي وهبها لي الشيخ .. أرض كالمرأة العاقر !

إلى متى نظل أجراء ؟!

الأولاد من الفتوة يذهبون للعمل في ضيعة الفتوة ، والأولاد من فارس يذهبون للعمل في ضيعة فارس ، والأولاد



من الشيخ يذهبون للعمل في ضيعة الشيخ. إلى متى نستمر على هذا الحال ؟!

اللقمة مرتبطة بالفتوة وفارس والشيخ ، وهاهم الأولاد ارتبطوا بهم – ارتباطا – أقوى من ارتباطهم بي ..

هل هو رباط اللقمة أم رباط الدم أم رباط الاثنين معا.

**********************

تعلقت بدوية بالشيخ .. وجدت فيه الأب والجـــد ، أعادها إلى جذورها وأصولها ، واحتضنـــت أولادهـــا منــه وقدمتهم على أولادها من فارس وأولادها من الفتوة ، جعلتهم في الصدارة ، ومكنتهم من كل غال ونفيس وأحبها الشــيخ لدلالها وحيويتها ، ولشبابها وجمالها ، معها يعود شابا ، يشــعر بأنها تعيد إليه حيويته وفتوته ، خبرت قبله رجلين وتعرف تماما حاجة الشيخ العجوز الداهية إلى الحب رغم الشيب الذي غـــزا رأسه والوهن الذي أصاب ظهره ، تلاعبه بشبابها ..

.. لحظات جميلة تلك التي تعيشها بدوية معه وهـــو يعود بها إلى شرخ الشباب وتمرده ، من فتوته وحكمته.

********************

ساعد الشيخ بدوية وسعى إلى إقامة ضيعة صغيرة لهـــا في الفضاء الذي يتاخم ضيعته .. وبمرور الوقت أصبحت ضيعة بدوية تشغل المساحة بين ضياع فارس والفتوة والشـــيخ .. و لم

يعترض أي منهم على إقامة بدوية بينهم ، فالفتوة له منها أولاد وفارس له منها أولاد وهي للشيخ زوجة وأنجبت منه أولادا.

.. مد أولاد بدوية من الفتوة أيديهم إلى أخوتهم في ضيعة الفتوة ينشدون الدفء والعزوة ، يبحثون عن مجد لهم هناك ، يبحثون عن جذور .. عن تاريخ ينتمون له ، فاحتضان الشيخ أولاده من بدوية ، و صلافته معهم ونظرة أولاد الشيخ المتعالية لهم. جعلتهم يتمسكون بالفتوة. حتى لو لم يعترف بهم وانشغل عنهم بثرواته وأحلامه .. فهم من صلبه .. ولو قتر عليهم في الرزق وفي العاطفة يجدون أنفسهم مرغمين على حبه .. فتح لهم أخوتهم أبواب الضيعة .. ووطدوا علاقتهم بهم .. فكانوا يشعرون بأنهم الفرع من الأصل الكبير ..

وأنهم بدون الانتماء لضيعة الفتوة يموتون .. يمارسون فيها الرعي ، والصيد ، ويتكسبون فيها أقواتهم وأرزاقهم !

**********************

**وإذا كان أولاد الفتوة وجدوا ما يعزون به أنفسهم وهو انتسابهم للفتوة وضيعته فإن أولاد فارس لم يقطعوا صلتهم يوما بأبيهم فيذهبون إليه ويتباهون بالانتساب إليه ولا يؤجل** لهم طلب ولا يبخل عليهم برأي أو معونة !

.. يذهبون إلى الضيعة فيكون لهم ما لإخوتهم وعليهم مثل ما عليهم فولاء أولاد فارس من بدوية لأبيهم.

.. والشيخ لا يخفى قلقه من أولاد فارس ، فدوما يقول لبدوية ((العرق دساس !)) والولد لأبيه فهاهم يلبسون لباسه ويتكلمون بلسانه ويقلدونه وبدوية بينها وبين نفسها لا تنسى فارس ولا أيامه الجميلة ولا تنسى ظهوره في الوقت المناسب لينقذها ويكتب لها الله الحياة على يديه.

.. ولم تنس الفتوة والجرح الغائر الذي تركه في القلب !

بدأ الشيخ يطمئن نسبيا على ضيعته .. فما عاد فرسان فارس يختالون في الفضاء ولا فرسان الفتوة يستعرضون قوتهم .. وكل سحب فرسانه إلى حدوده .. ويبدو أن ثمة قناعة من الجميع بترك هذا الفضاء لبدوية وتبقى هذه المنطقة بينهم محايدة وآمنة ..

.. وما عاد الشيخ بقادر على الاستغناء عن وصفات شكرون السحرية واستثمرت بدوية حالات الضعف التي تنتاب الشيخ فتطلب ، وتطلب ، والشيخ لا يرد لها طلبا .. يبني لها ولأولادها القصور ، هاهو ذا يقيم لها فيلا أنيقة ، أسوارها عالية وأشجار النخيل من خلف الأسوار باسقة ، الستائر الحريرية تغطي النوافذ ،وفرش لها الأرضية بسجاد يشي بالحسن وينطق بالجمال .. بنمنماته الصغيرة وألوانه الزاهية ، والأسقف تجلت برسوم ونقوش غاية في الروعة .. وتبدو من خلف ا الشمعدانات المثبتة في السقف كأن آلهة الفن هبطوا من السماء

ليتباروا في صنعها .. شيئاً فشيئاً. تحاول بدوية – أن تخرج من عباءة البداوة ..!!

*************************

وذات أصيل ، امتطت جوادها ، وراحت تتفقد أحوال الضيعة واسترعى انتباهها أن الضيعة عبارة عن ثلاثة شوارع متوازية .. شارع بمحاذاة ضيعة الفتوة ، يسكنه أبناؤها من الفتوة ، والشارع الآخر بامتداد البحر يسكنه أبناؤها من فارس ، والشارع الثالث بمحاذاة ضيعة الشيخ يسكنه أبناؤها من الشيخ ..

.. أبناؤها من الفتوة صمموا بيوتهم على الطريقة التي يصمم بها الفتوة بيوت ضيعته، وأبناؤها من فارس قلدوا المساكن التي في ضيعة فارس ، وأبناؤها من الشيخ ابتنوا منازلهم بنفس طريقة الشيخ !

.. بدأت تستشعر قلقاً غامضاً .. تمنت لو تهدم كـــل هذه المنازل ، وتعيد تخطيط الضيعة والبناء ، لابد أن يكون لنـا طراز معماري خاص بنا

.. ولكن كيف ؟!

.. لماذا لا تتقاطع الشوارع وتتقابل ؟!

.. وراحت تبحث عن سر هذا التنافر – هل هـــو اختـــلاف الأصول ؟!

.. هل يمكن أن يلتقي فارس والفتوة والشيخ ؟!

.. إذا كان هذا يبدو عاشر المستحيلات ..

فلماذا لا أعانق المستحيل ؟!

الواقع يقول :

إن بيني وبين كل واحد منهم لحظات انصهار وامتزاج.

– ذاب الجسد في الجسد والروح في الروح .. واختلط الـــدم بالدم .. وأنجبت من ثلاثتهم أولاداً .. فثمة قاسم مشترك بـين هؤلاء الأولاد ..

.. أنا القاسم المشترك الأعظم ..

ففيهم مني أكثر مما في آبائهم ..

نزلت عن جوادها وأطلقته يعود ، وراحت تنفخ بغيظ :

- أين الخلل ؟! .. أين الخطأ ؟!

أبناء الفتوة يتعلمون في مدارس الفتوة ، وأبناء فارس يتعلمون في مدارس فارس ، وأبناء الشيخ يتعلمون في مدارس الشيخ .. حتى الصلاة كل يؤدي صلاته في ضيعة أبيه ..

.. لماذا لا يكون لدينا مدرسة .. يجلس ابن الفتوة وابن فارس وابن الشيخ على مقعد واحد وكتاب واحد .. ولماذا لا يكون لدينا مسجد واحد ويكون لنا أذان واحد بدلا من أذانين وصلاة واحدة بدلا من صلاتين .. يقف ابن الفتوة بجوار ابن الشيخ بجوار ابن فارس ، الكتف في الكتف، والقدم في القدم ..

.. أحلم بمدرسة ، ومسجد ، وعلم ونشيد ..

ولكن هل يتركني الشيخ أو الفتوة أو فارس ؟!

الأولاد انفرط عقدهم ، أولاد الفتوة لا يلتقون بأولاد فارس ولا بأولاد الشيخ .. ليس بينهم سلام ولا حوار.

.. ليس عندهم انتماء للضيعة .. فأين هم الآن ؟!
**لا أحد في الضيعة ..**
**صحيح أنها ضيعة فقيرة – تنكر أرضها الزرع ، ويجف فيها الضرع .. ولكن أن تفرغ كل دار بهذا الشكل وتصير كالقبور .. كلا وألف كلا ..!**

***********************

الهواء ساخن يلسع وجهها .. وهبت فجأة .. رياح محملة برمال ناعمة تسد طاقتي أنفها .. أغلقت فمها على صرخة لا تستطيع أن تطلقها ، الرطوبة عالية وتكاد تخنقها ، تتصبب عرقا لزجا كغراء .. التصقت ملابسها بجسمها ، الجو أصفر بلون الرمال التي حجبت الشمس ، تصفع الرمال وجهها وأذنيها .. وصفيرها يخترق أذنها مع رمال تستقر في جوفها ..

جربت أن تسير بظهرها ، وبجنبها ، تحاصرها الرمال من كل جانب تلف رأسها بذراعها ، تتهاوى الرمال الصغيرة الناعمة على رأسها تحس بها كأنها حجارة من سجيل ،

اشتدت الرياح وزأرت كأسد جائع و لم تقو قدماهـــا علـــى الحراك.

التفت الساق بالساق ، وأحست بأنه يوم المســـاق ، هوت على الأرض دافنة وجهها في كفيها ، تضربها الريـــاح والرمال ، حر ورطوبة وعرق ورائحـــة كريهـــة ، ورعشـــة كرعشة الموت ، ويوم طويل .. طويل كيوم الحشر ..

.. أحست بإظلام الدنيا المفاجئ .. ورياح ورمـــال تتطاير ، ورأت فيما يراه النائم .. أولادها يجرون بكل عـــزم وقوة في ثلاثة اتجاهات .. ورأت الفتـــوة وفـــارس والشـــيخ يشكلون حولها دائرة مغلقة ، ويجـــري الأولاد باتجاهـــهم .. وتفرغ الدائرة شيئا فشيئا .. وتجد نفسها وحيدة في منتصـــف الدائرة .. تدور في فراغ الدائرة الكبير ..

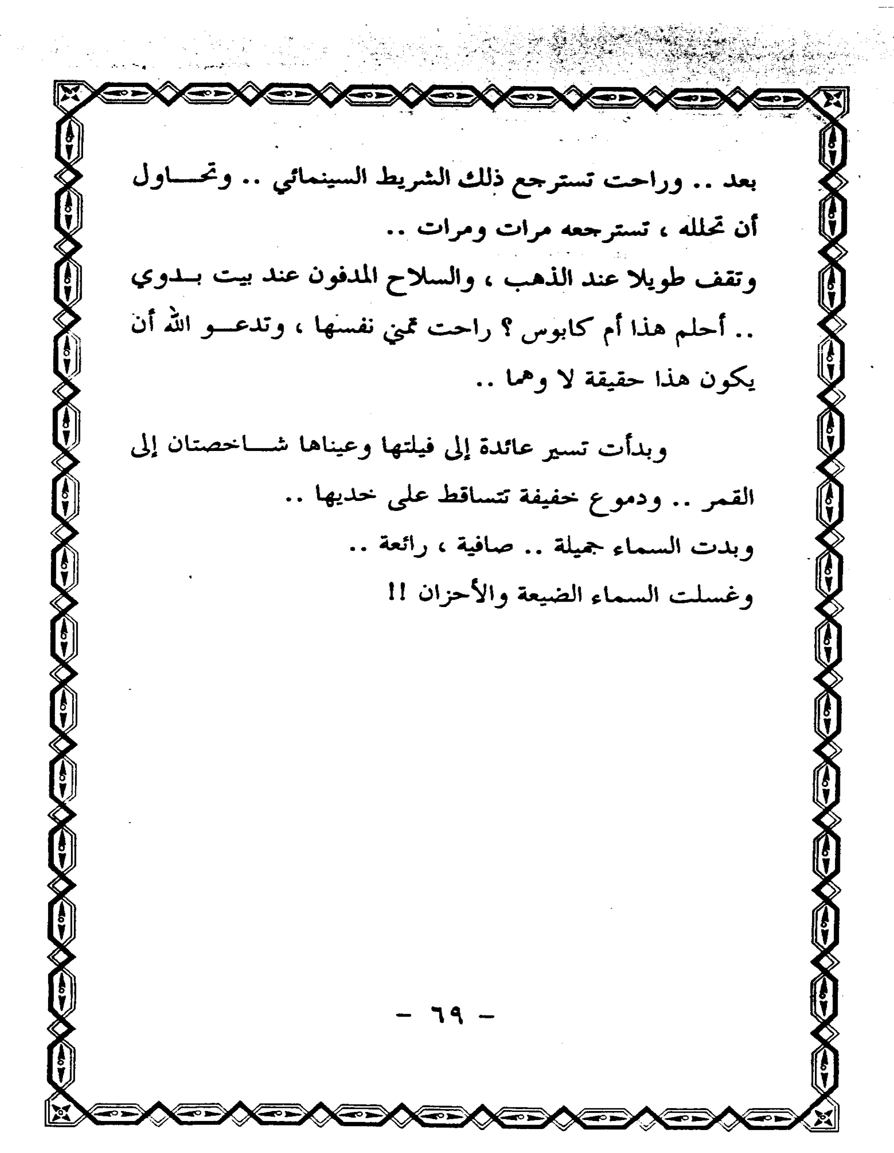
.. ورأت نفسها كثقل مربوط بثلاثة حبال .. طـــرف الحبل الأول في يد الفتوة وطرف الحبل الثاني في يد فـــارس .. وطرف الحبل الثالث في يد الشيخ .. يرخون الحبال أحيانـــا ..

ويشدونها أحيانا أخرى .. وتتأرجح بين شد الحبال وجذبها .. ككرة حائرة .. لا إلى هذا ولا إلى ذاك .. ورأتها تصغر وتصغر وتصغر .. وفي الوقت الذي بدأت تتلاشى فيه يخرج لها زعيـم البدو من قمقم مارد .. فاردا ذراعيه وصدى صوته يـــرن في الفضاء الواسع.

– أنت من صلبي .. احفري في الضيعة من عند بيتي القـديم .. خمسة خطوات شمالا لعمق مترين تجدين صفـــائح ذهــبي .. وخمسة خطوات يمينا تجدين أجولة من اللآلــــئ .. وخمســـة خطوات شرقا تجدين أجولة من العملات القديمة فضية وذهبيـة وخمسة خطوات غربا تجدين صناديق من الأسلحة والذخيرة .. وربت على كتفها .. وشد على يدها .. واختفى ..

**********************

كانت الرياح قد هدأت ، والرمال سكنت ، وتساقط المطر رذاذا خفيفا .. ونشر القمر ضوءه الهادئ في الضيعـــة .. ومازالت الضيعة خاوية .. فلم يأت الأولاد من ضياع آبائــهم



بعد .. وراحت تسترجع ذلك الشريط السينمائي .. وتحـــاول أن تحلله ، تسترجعه مرات ومرات ..

وتقف طويلا عند الذهب ، والسلاح المدفون عند بيت بـدوي .. أحلم هذا أم كابوس ؟ راحت تمني نفسها ، وتدعـو الله أن يكون هذا حقيقة لا وهما ..

وبدأت تسير عائدة إلى فيلتها وعيناها شـــاخصتان إلى القمر .. ودموع خفيفة تتساقط على خديها ..

وبدت السماء جميلة .. صافية ، رائعة ..

وغسلت السماء الضيعة والأحزان !!

لم تنم بدوية ليلتها .. ظلت شاخصة ببصرها تفكر في الكنز .. واستغلت بدوية فرصة خـــروج الأولاد مبكريـــن في الصباح للعمل في ضياع فارس والفتوة والشيخ ..

وسارت بمفردها إلى بيت بدوي القـــديم .. تحمـــل أدوات الحفر ، وصرة الطعام وإبريق الماء ، ومضت .. يحدوها الأمل .. نظرت إلى البيت الذي حولته الســـنون إلى أطـــلال وقالت في نفسها :

كانت أمي ذات جمال ودلال .. كل نساء البدو كن يحســدنها على جمالها .. ولماذا لا يكون بدوي قد التقطها من باحـــة أو طريق وصادفت هوى في نفسه فتزوجها .. فكنت أنا ثمـــرة هذا التلاقي .. ما معنى أن ترفض أمي رجالا مـــن البـــدو .. حفيت أقدامهم لتقبل أن تكون زوجة لواحد منهم .. لمـــاذا كانت ترفض وهي في ريعان الشباب ؟! كانت تقربني إليـــها وتحكي لي عن بدوي .. تحملني كل صباح إلى هذا البيـــت .. نمضي فيه نهارنا .. ألمح دمعا يترقرق في مآقيها ..

أراحت بدوية حملها وولجت البيت الذي تحـــول إلى أطلال .. وراحت تضغط على الذاكرة .. تجد نفسها صغـــيرة تتعثر في خطواتها ، تمسك في ذيل جلباب أمها .. ورجل طويل .. طويل .. رأسه تحف السماء .. عريض .. بعرض الجبــل .. يلتقطها بخفة من الأرض .. يحملها بين ذراعية القويتين ويحدفها لفوق .. فتعلو .. وتعلو .. وتقبض على الشمس إذا كـــانت نهارا وتمسك بالقمر إذا كانت ليلا .. وتضحك .. وتضحــك .. ويضحك الرجل الطويل العريض .. ويقبلها .. ويـــدس في فمها الحلاوة ..!!

.. بصعوبة تتذكر صورا باهتة .. مشوشة .. يحمـــل أمها إلى الداخل ، يوصدا ن الباب خلفهما .. تذكر أنهما كانا يشغلانها بصفائح كانت مملوءة بعملات ذهبية وفضية ولآلئ .. يشغلني صليل الذهب .. ويأخذني بريقه .. أصنع عقودا مـــن الذهب .. وأساور من فضة .. تخُرج أمي وجبينـــها يتفصـــد بحبات عرق من لولؤ.

.. تحاول بدوية أن تنفض غبار السنين ، وتلملم أشلاء الصور المبعثرة .. صغيرة كانت عندما أصاب أمها حمى ، كانت تهلوس .. تحاول أن تتذكر هلوسات أمها .. ترهف أذنيها في محاولة لالتقاط الكلمات .. تتذكر بصعوبة .. كانت تهذي : بدوية .. بدوي .. الذهب ..

أفاقت بدوية من شرودها وقالت :

- مستحيل !! .. مستحيل أن يكون كل هذا ضربا من ضروب الوهم أو الخرافة ..

وقفت أمام البيت وراحت تنظر شمالا وتقيس خمس خطوات وتضع عند نهاية الخمس خطوات حجرا وتنظر جنوبا وتقيس خمس خطوات وتضع حجرا آخر عند نهايتها .. وعند نهاية الخمس خطوات من شرق البيت تضع حجرا ثالثا ، وحجرا رابعا عند نهاية الخمس خطوات من غرب البيت ..

.. نظرت إلى الحجارة .. نظرات حائرة .. بين الشك واليقين .. بين الأمل واليأس .. إحساس في داخلها لم تستطع

أن تترجمه إلى معنى محدد ، بين التردد والإقدام وقفت ، يعلـــو وجيب قلبها .. أغمضت عينيها وراحت تستدعي ولو بعـــض ثقة وقليلاً من شجاعة وأمل ..

تملكها عزم وفاجأها قوة .. وراحت تحفر .. أسراب من الطيور تحلق فوق رأسها .. استبشرت بأصواتها خيراً .. ساعة .. ساعتين ، ثلاث ساعات .. لا تدري بالضبط كم من الوقت انقضى .. توسطت الشمس في السماء .. تفصدت عرقاً ، عرجت إلى دوحة قريبة تلتمس بعض الراحة .. ونسمة هواء رقيق ، وظلاً .. بللت لسانها بقطرات الماء .. ونظرت إلى الحفرة .. لم تصدق نفسها وهي ترى أكوام الرمال التي أخرجتها.. استشعرت قوتها واطمأنت على صحتها .. ابتسمت في داخلها .. لم ينل مني الحمل ولا الولادة .. تحسست بطنها المشدودة .. لا زوائد ولا ترهلات ولا ثنيات .

وقفت تنظر إلى نفسها .. تمدد ساقيها وذراعيـــها .. وتلتفت لترى ردفيها وتمسك خصرها .. وتقول :

**– قليل من الامتلاء .. هذا العمل الشاق كفيل بإذابة الشحومات الزائدة .. لا تدري لماذا تذكرت الفتوة وهو يناديها :**

**– (( يا أجمل مهرة عربية ! ))**

نفخت بغيظ وقالت :

**– (( يا أنتن فارس عربي )) !!**

وبدت لها صورته .. فبصقت .. أراحها البصاق الذي ملأ وجهه .. تمنت لو تقيده بأغلال من حديد ، وتنزع شاربه الكث شعرة شعرة .. تجلده بالسوط على وجهه وعلى مؤخرته .. تأتي بسيخ من حديد وتضعه في النار حتى يحمر وتغرسه في دبره فيخرج من فمه .. تبتسم وهي تسمع تأوهاته .. وصرخاته .. بيدها تخصيه كالجدي .. يقول على الملأ ! (( أنا امرأة ..!!)) .. تستريح قليلا .. تمضي إلى الحفرة .. تنزل الحفرة .. بقوة لا تفتر وعزيمة لا تكل .. تحفر .. ظلت تحفر وتحفر .. حتى سمعت صوت ارتطام الفأس بجسم صلب ..

وقفت مذهولة .. تنظر .. كاد أن يقع قلبها في رجلها وهي تمد يدها فتحتك بصندوق خشبي كبير .. بللت الدموع عينيها وهي تفتح الصندوق فتجده مملوءا بالذهب ، أغلقته بخوف ووجل ، وثبت من الحفرة بسرعة قرد وخفة غزال .. وراحت تهيل التراب على الصندوق .. كانت تسابق الزمن وتنادي الشمس ألا تغرب قبل أن تسوي الحفرة بالأرض .. قبل أن يجيء الأولاد ..

.. أعادت الوضع كما كان عليه قبل الحفر ، أحست بأنها طائر يحلق في السماء .. وأحست بأن الصحراء الواسعة تضيق عن استيعاب ضحكتها وفرحتها.

هرب النوم من عيني بدوية .. وكيف تنام – وهـــي أصبحت تملك تلالاً من الذهب وأكداساً مـــن الأســلحة .. نهضت من فراشها حائرة قلقة .. وذهنها مشوش .. بعثــت في طلب أولادها من الفتوة وأولادها من فارس وأولادهــا مــن الشيخ .. جاء الأولاد فرادى .. وجماعات .. يتثاءبون وآثــار النوم في عيونهم .. افترشوا الفضاء أمام الفيــلا وجلســوا في حلقات.

خرجت إليــهم .. وجلســت بينــهم ، تداعبــهم وتلاطفهم وقالت بعد أن اطمأنت أن الكل يقظ :

– أنتم الآن أصبحتم رجالاً .. وأصبحنا نملك ضيعة .. فلمــاذا تؤثرون أن تعملوا أُجراء في ضياع ليس لكم فيها نصيب ؟!

– ضيعتنا فقيرة يا أم لا زرع فيها ولا ماء ..!!

– ولماذا لا نفجر ماءها ؟!

– الأمر يحتاج إلى أموال طائلة ، والعين بصيرة واليد قصيرة ؟!

– ولماذا لا تطلبون مني المال ؟!

**- وأنى لك بالمال ؟!**

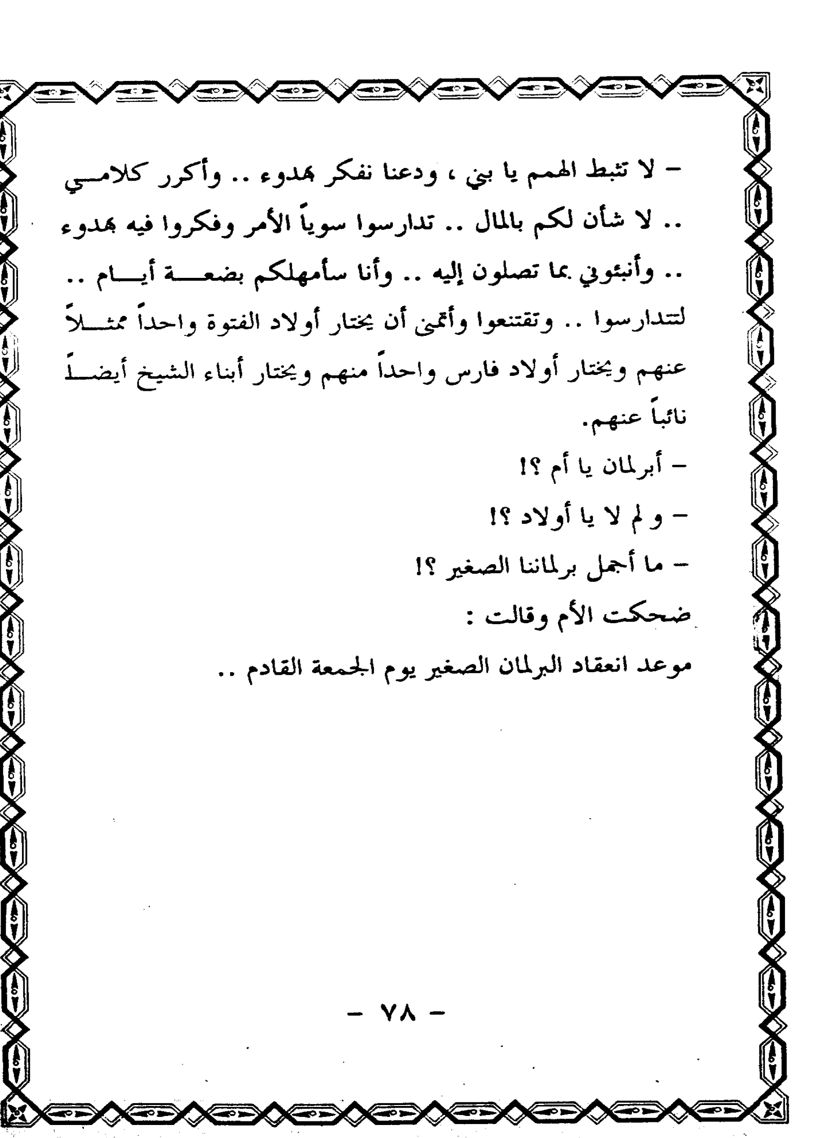
**- تباً لكم .. ألست زوجة لرجل ثري ينقدني مصروفاً كبيراً .. أدخره كله .. ألم أكن قبله على صلة برجلين أعطياني** مصاغاً من ذهب ومجوهرات وخلافه .. صدقوني .. ضيعتنا صغيرة .. لو اكتشفنا بئراً واحداً من الماء العذب .. لكفانا شرباً وزراعة .. لماذا لا تحلمون مثلي بضيعة تكون قطعة من الجنة ، شوارع واسعة .. نظيفة .. ممهدة .. مسفلتة ، وأعمدة إنارة ، وبيوت واسعة .. أسواق ومتاجر ، مدرسة ومسجد وعلم ونشيد .. حركة حياة يا أولاد ..

- لماذا لا يأتي الناس من الضياع الأخرى للعمل في ضيعتنا ؟ .. ولماذا لا يرتادون أسواقنا ؟ .. ولماذا لا نكون منطقة جذب؟ .. ولماذا .. ؟!

قاطعها أحدهم قائلاً :

- كلامك أقرب إلى الأحلام منه إلى الواقع ، فلن يتحقق هذا إلا إذا كنت ترقدين على كنز ..!

- قاطعته قائلة :



- لا تثبط الهمم يا بني ، ودعنا نفكر بهدوء .. وأكرر كلامي .. لا شأن لكم بالمال .. تدارسوا سوياً الأمر وفكروا فيه بهدوء .. وأنبئوني بما تصلون إليه .. وأنا سأمهلكم بضعة أيام .. لتتدارسوا .. وتقتنعوا وأتمنى أن يختار أولاد الفتوة واحداً ممثلاً عنهم ويختار أولاد فارس واحداً منهم ويختار أبناء الشيخ أيضاً نائباً عنهم.

- أبرلمان يا أم ؟!

- و لم لا يا أولاد ؟!

- ما أجمل برلماننا الصغير ؟!

ضحكت الأم وقالت :

موعد انعقاد البرلمان الصغير يوم الجمعة القادم ..

( ١٧ )

**في ليلة أنس وفي ساعة رضى قالت بدوية للشيخ :**

**- مارأيك لو ننقل رفاة المرحوم بدوي إلى ضيعتنا !**

قال الشيخ :

- رحمة الله عليه وما الذي ذكرك به ؟!

- كلما مررت بداره التي أصبحت أطلالاً .. استشعرت روحه تحوم حولها .. وإذا غلبني النعاس جاءني في المنام ويشير إلى داره..

-كان رحمة الله عليه عاشقاً لهذه المنطقة المجدبة وكثيراً ما ألححت عليه أن يقيم بيننا .. ولكنه كان يرفض بشدة ولا أدري سر ارتباطه بهذا المكان

- يعني أنت لا تمانع !

- أبداً .. مادامت هذه رغبتك ورغبته

وسُرت بدوية بهذا الوعد .. ولم تكذب خبراً ، فأقامت مكان الدار ضريحاً ، ومقاماً كبيراً .. وجيء برفات بدوي في مشهد مهيب .. تقاطر البدو من كل مكان ..

وبعثت بدوية في طلب الشعراء .. والمنشدين والمداحين ونحرت الخراف والإبل ..!

**قالت بدوية لنفسها :**

– لماذا لا نجعل من هذا اليوم عيداً نحتفل به كل عام أسبوعاً على الأقل .. ولماذا لا نجلس مع الشعراء والمداحين والمنشدين ورواة السيرة ، ونعيد صياغة سيرته ، نضيف إليها حوادث ، ونسقط منها حوادث .. بدوي الوحيد من البدو المعاصرين الأقرب إلى البطل الأسطوري !

.. وكم كانت سعادة بدوية وهي ترى بضع مئات من البدو وغيرهم يتمايلون طرباً من سيرة بدوي على ألسنة الشعراء والمداحين ..!

.. فإذا كان الفتوة قد صنع لأهل ضيعته تاريخاً وفارس صنع تاريخاً والشيخ صنع تاريخاً .. لماذا لا نصنع نحن تاريخاً أيضاً ..

.. سنقيم هنا سوقاً وأماكن للإقامة ، يفد إليها البدو كل عام ..

وبينما بدوية سادرة في أفكارها فاجأها أحد أبنائها من الفتـوة مُعقباً على ما سمعه من المداح :

- متى كان قاطع الطريق رجلاً محترماً يا أم ؟!

ساءها ما قاله وقالت بغيظ :

- اخرس يا ولد

وصفعته على وجهه .. فتدخل أحد أبنائها من فارس وقال :

- أتضربين ابنك لأنه قال كلمة حق في هذا البدوي الجلف !

وصفعته هو الآخر وقالت :

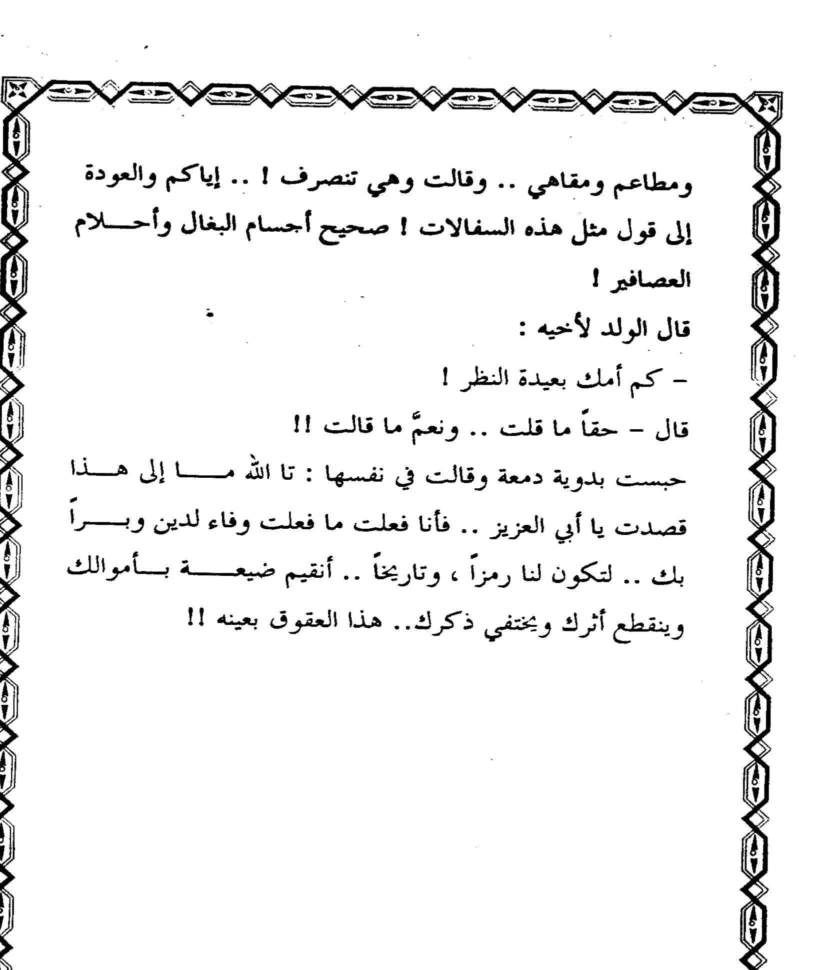
- إنه جدكما لأمكما !

التقت أعين الأولاد دهشة واستنكاراً

وأضافت الأم :

- نعم .. جدكما .. وهنا كان يعيش .. ونحـن أولى بـه .. وهدأت قليلاً وقالت :

- انظروا !! .. كم من الناس جاءوا حباً فيه ..؟! في هذا العام بضع مئات وسيأتي في العام القادم بضع آلاف .. انظـروا إلى المردود المادي الذي يعود علينا لو أقمنا سوقاً وأماكن إقامـة



ومطاعم ومقاهي .. وقالت وهي تنصرف ! .. إياكم والعودة إلى قول مثل هذه السفالات ! صحيح أجسام البغال وأحـــلام العصافير !

قال الولد لأخيه :

- كم أمك بعيدة النظر !

قال - حقاً ما قلت .. ونعمَّ ما قالت !!

حبست بدوية دمعة وقالت في نفسها : تا الله مـــــا إلى هـــذا قصدت يا أبي العزيز .. فأنا فعلت ما فعلت وفاء لدين وبـــراً بك .. لتكون لنا رمزاً ، وتاريخاً .. أنقيم ضيعـــة بـــأموالك وينقطع أثرك ويختفي ذكرك.. هذا العقوق بعينه !!

( ١٨ )

قال كبير العسس للفتوة :

- المرأة البدوية جاءت بجثمان بدوي من ضيعة الشيخ ..
وأقامت مقاماً له مكان داره .. قصده المئات من البدو !

.. هرش الفتوة في قفاه وقال :

- أتحيي ذكراه بنت ( القحبة ) لتنغص علينا حياتنا
أريدكم أن تدكوه وأن تسووه بالأرض !

- عفواً يا سيدي .. إذا فعلنا هذا سيذكره الناس أكثر
ويزدادون تعلقاً به !

قال بضيق : وما الحل ؟! .. يتملكني الغيظ كلما سمعت اسمه
.. كنا نظن أننا انتهينا منه إلى الأبد ..

قال كبير العسس ليسري عن سيده :

- يبدو أنك وحشتها يا سيدي فتشاكسك !!

ابتسم الفتوة وقال :

- كان هذا من زمن بعيد ..!

**– إذا كان سيدي قد نسي .. فلا يمكن أن تنسى هي .. فليس سيدي مختناً كفارس ولا عجوزاً أو مريضاً كالشيخ .. وقديماً قالوا "ما الحب إلا للحبيب الأول"**

**.. ضحك الفتوة وقال :**

– لا أكتمك سراً إذا قلت أنني أشتهي البدوية ..!!

– مرني يا سيدي آتيك بها زاحفة ..

– لا أريدها زاحفة .. ولكنني أريدها أن تأتي عن رغبة وعن طيب خاطر .. جربنا الغصب مع نساء كثيرات واكتشفنا عدم جدواه.

– دع لي هذا الأمر يا سيدي ،فظني أن السنوات لم تطفئ نار شوقها إلى حضنك ولا أعتقد أن الشيخ الكبير قادر على ري ظمئها وإخماد نار رغبتها

– يقولون أنها أصبحت أكثر جمالاً وأشد فتنة وإغراء عن ذي قبل !

– نعم .. نعم يا سيدي هي كذلك !

**********************

.. استدعى كبير العسس بعض جنده ، تجاذبوا أطراف الحديث همساً ومضوا إلى ضيعة بدوية .. أرشده الدليل إلى مكان إقامة بدوية .. طرق الباب .. ودلف يختال كالطاووس وأخذ ينظر يميناً وشمالاً مأخوذاً بالفيلا الأنيقة التي تقيم فيها ، والتي لا تقل بحال عن فيلا سيده ..

.. دقائق وجاءت بدوية ، وجلت لما قدم لها نفسه ولكنها تمالكت وقالت :

– ماذا تريد ؟

– سيدي يقرئك السلام

قالت بتماسك :

– لا سلام بيننا ولا كلام !

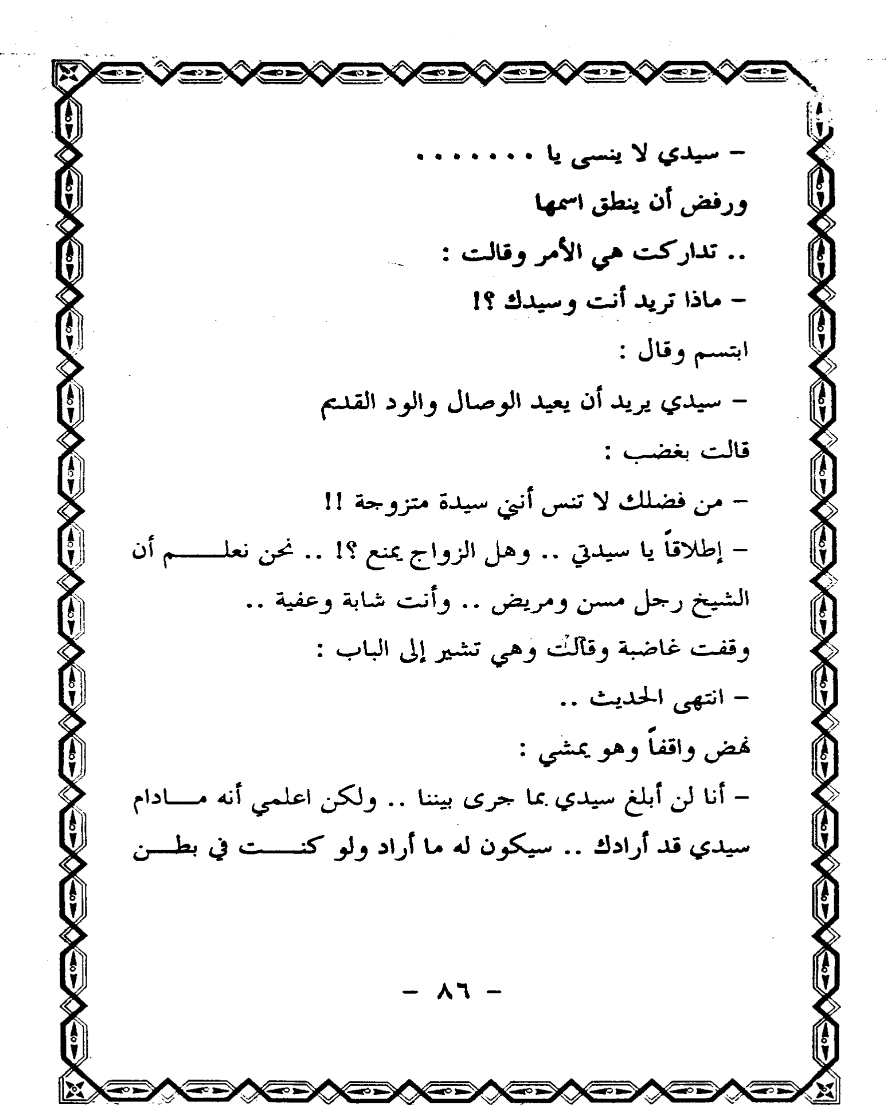
صمت قليلاً ، ونظر إليها ملياً وابتسم ابتسامة باهتة وقال :

– لم ينسك يوماً ..

قاطعته قائلة :

– ولكني نسيته ونسيت أيامه !

قال بغضب وأشار بيده بحزم !



**- سيدي لا ينسى يا ......**

**ورفض أن ينطق اسمها**

**.. تداركت هي الأمر وقالت :**

**- ماذا تريد أنت وسيدك ؟!**

ابتسم وقال :

- سيدي يريد أن يعيد الوصال والود القديم

قالت بغضب :

- من فضلك لا تنس أنني سيدة متزوجة !!

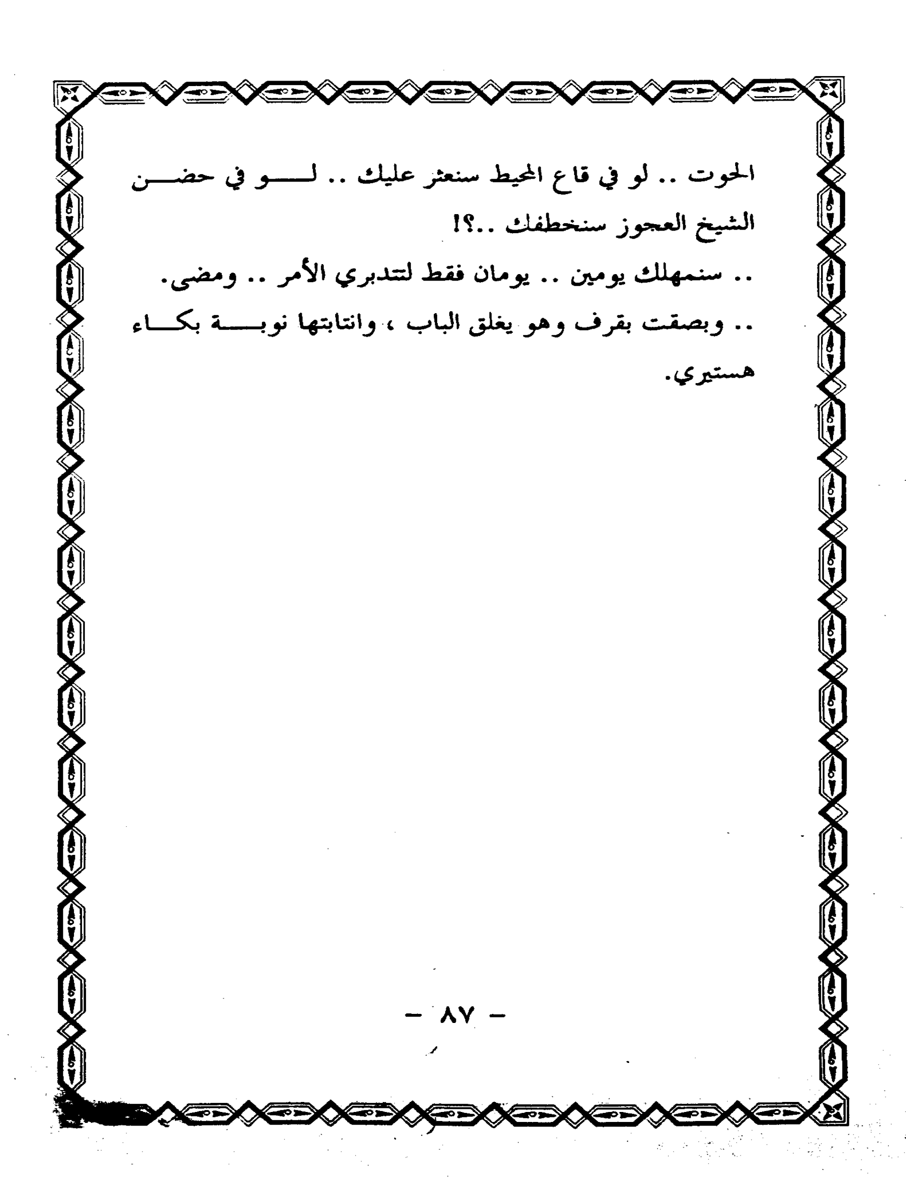
- إطلاقاً يا سيدتي .. وهل الزواج يمنع ؟! .. نحن نعلـــم أن الشيخ رجل مسن ومريض .. وأنت شابة وعفية ..

وقفت غاضبة وقالت وهي تشير إلى الباب :

- انتهى الحديث ..

نهض واقفاً وهو يمشي :

- أنا لن أبلغ سيدي بما جرى بيننا .. ولكن اعلمي أنه مـــادام سيدي قد أرادك .. سيكون له ما أراد ولو كنـــت في بطـــن



الحوت .. لو في قاع المحيط سنعثر عليك .. لـــو في حضـــن الشيخ العجوز سنخطفك ..؟!

.. سنمهلك يومين .. يومان فقط لتتدبري الأمر .. ومضى.

.. وبصقت بقرف وهو يغلق الباب ، وانتابتها نوبـــة بكـــاء هستيري.

( ١٩ )

لم يكن أمام بدوية بُد من استدعاء الشيخ. والـــذي كان مشغولاً مع وجهاء الضياع .. فالشيخ دأب منـــذ فـــترة ليست بالقصيرة على إقامة وليمة كل حين ، يدعو فيها وجهاء وكبار الضياع القريبة والبعيدة .. الصغيرة والكبيرة ، يتبـــادلون الرأي والمشورة .. والمصالح والمنافع .. قالت له باكية ..

– لو لم يكن الأمر جللاً لما أرسلت إليك وأنا أعلـــم أنـــك مشغول مع ضيوفك

– خيراً يا بدوية .. فأنا أدركت أن الأمر خطير

– القذر ! .. النتن ! .. الحقير !

– من ..؟!

– الفتوة !

– ماذا حدث ؟

– بعث لي بكبير (القوادين) ليراودني عن نفسي !

.. غلى الدم في عروق الشيخ ، وحاول أن يتماسك وهو يستمع إليها وريثما فرغت من حديثها .. حاول أن يطمئنها وقال :

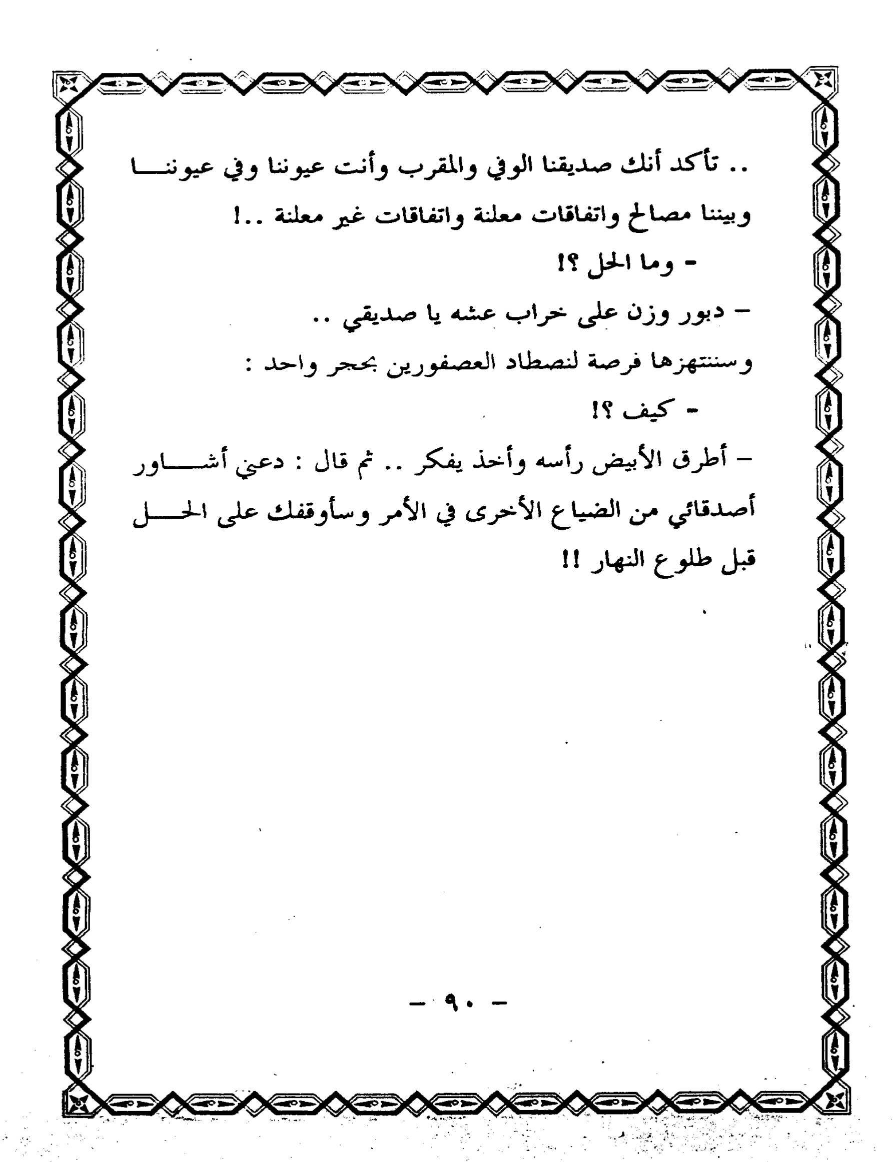
أمهليني بضع ساعات وسآتيك بالحل الأمثل !!.. ومضى والغضب يتملكه ..

**********************

بعد أن فرغ الشيخ وضيوفه من العشاء .. اختلى بوجيه ضيعة الأبيض - الذي تربطه به علاقات طيبة ، وحدثه عن الفتوة وما بدر منه تجاه زوجته .. وقال : أنه يهدد أمنه واستقراره ، ويحاول أن يبسط نفوذه ويمد سلطانه إلى كل الضياع المجاورة ويبحث عن بطولة وزعامة ..

قال الأبيض مبتسماً :

لا تقلق يا شيخ .. فنحن نعلم عنه كل شيء .. نعلم ما يجول في خاطره وما توسوس به نفسه .. هو والمدعو فارس فكلاهما له نفس الطموح ونفس الغرض وإن اختلفت الأساليب !



.. تأكد أنك صديقنا الوفي والمقرب وأنت عيوننا وفي عيوننـــا وبيننا مصالح واتفاقات معلنة واتفاقات غير معلنة ..!

- وما الحل ؟!

- دبور وزن على خراب عشه يا صديقي ..
وسننتهزها فرصة لنصطاد العصفورين بحجر واحد :

- كيف ؟!

- أطرق الأبيض رأسه وأخذ يفكر .. ثم قال : دعني أشـــاور أصدقائي من الضياع الأخرى في الأمر وسأوقفك على الحـــل قبل طلوع النهار !!

## ( ٢٠ )

لم تنم بدوية ليلتها ، ظلت تقطع الغرفة جيئة وذهاباً ، يساورها القلق والخوف .. يخيل إليها أن الفتوة سيفاجئها في أي لحظة فترتعد ..

غلقت الأبواب جيداً وأطفأت الأنوار ..

.. وما كادت تسمع خطوات الشيخ حتى عدت إليه مسرعة .. ارتمت في حضنه كقطة مذعورة .. دلك فروة رأسها .. وتحسس خديها بحنان وقال :

- لا تخافي ؟! .. ما دمت بجوارك لا تخشي شيئاً.

.. أراح يدها في يده ، وقبض عليها برفق .. وسار إلى غرفة .. أحكما غلقها .. وقال :

- قبل أن يلملم الليل أستاره ، سيتسلل بعض فرساننا إلى ضيعة الفتوة من حدوده مع فارس ، يحرقون زروعاً ، يهدمون بيوتاً يخطفون ماعزاً وإبلاً .. يسرقون سلاحاً ، يقتلون فرساناً .. نائمين ، مطمئنين أن الضيعة آمنة .. أو ساهرين يتعاطون الخمور ، ويضاجعون البغايا ..

غزوة سريعة .. يلحقون فيها أكبر الخسائر بالفتوة في أقل وقت ممكن .. ثم يتسللون إلى ضيعة فارس ويتركون به آثارهم هناك .. ليتأكد الفتوة أن الطعنة جاءته من فارس وجنده

– ياله من تخطيط محكم .. وتدور بينهما رحى المعارك فينشغل عني.

– نعم .. ولن ندع الحرب تضع أوزارها بينـــهما. نريـــد أن يستمر القتال بينهما ويدوم ..

قالت بدوية : حتى يجهز أحدهما على الآخر !

قال الشيخ : لا نريد لأحد منهما أن يفني الآخر ، فلو أفـــنى أحدهما الآخر لتفرعن المنتصر وتعملق ونفش ريشه واختـــال كالطاووس لا يكحل عينيه أحد ويتهددنا خطره وبأسه نريدها حرباً طويلة لا غالب فيها ولا مغلوب يستنزفان قوهمـا حتى يصبحا من الضعف بحيث لا يقدر كل منهما على رفـــع رأسه أو صوته

قالت بدوية :

– كيف نجعل الحرب مستمرة بينهما لا يحسمها أحد لصالحه؟

**- إذا رأينا أن ميزان الحرب يميل لصالح فارس تدخلنا سراً وأرسلنا السلاح للفتوة ليعيد الميزان إلى وضعه .. والعكس صحيح .. إذا رأينا الغلبة للفتوة أرسلنا لفارس المؤن والسلاح .. !**

.. ولا تدري بدوية لماذا شعرت أنها تتضاءل أمام الشيخ وتصغر .. أحست بأنها مازالت نقطة في محيطه .. تلميذة في أول المدرسة ، تتلعثم في حروف الهجاء ، وقبل أن تعقب على كلام الشيخ وتسأله عما يدور بخلدها - كانت المعارك قد اشتعلت على الحدود وتطاير خبرها .. وبينما الفرحة تنط من عيني الشيخ والبسمة تملأ شفتيه كان الهلع والخوف يسيطران على بدوية !

( ٢١ )

التقت بدوية في برلمانها الصغير بسعد ابنها ممثـل أولاد الشيخ .. وعلي ممثل أولاد فارس وفهد نائباً عن أولاد الفتوة..

قالت : ماذا عندكم ؟!

قال سعد :

– تربطنا علاقة صداقة برجال من ضيعة الأبيض يعملـون في استخراج النفط في ضيعة أبي ، ويملكون آلات حفر عملاقة– أستطيع أن أقنعهم بأن يعاونونا بهذه الآلات في حفر بئر ماء.

قال علي :

– ولكنهم سيطلبون أموالاً طائلة نظير عملية الحفر واستخراج الماء !

قال فهد :

– وإذا لم نستطع أن ننقدهم أجرهم ربما يطلبون أن يشـلوكونا في ماء البئر !

قال سعد :

– أؤكد لكم بأنهم سيؤدونها لي كخدمة والمسألة لن تحتـــاج لأكثر من نفقات الطعام والإقامة.

قالت بدوية :

– إذا كان الأمر كذلك فما المانع يا أولاد .. لماذا نُقدِّر البـــلاء قبل وقوعه ؟!

– تجاربهم في الضياع الأخرى لا تبشر بخير!

.. نظرت بدوية لعلي وفهد وقالت :

لماذا تبدوان غير طبيعيين ؟!.. ماذا بكما ؟

قال سعد :

– الحرب ! .. الحرب الدائرة على الحدود بين أبويهما

نفخت بدوية وقالت :

– اللعنة !.. اللعنة على الحرب !.. اسمع يا علي يا حبيبي وأنت يا فهد يا نور عيني .. أنتما ولداي الكبيران ، فلتنأيا بأنفسـكما وبأخويكم عن أتون هذه الحرب التي لا ناقة لنا فيها ولا جمل !

قال علي :

- تالله يا أم لم أنم ليلة أمس !.. كنت أحاول أن أنزع فتيـــل الغضب والتهور من قلوب أخوتي.

قال فهد :

- وأنا أيضاً ..

- حسناً !.. حسناً تفعلان !.. صدقوني ، صدقوني يا أولاد .. سأعمل كل جهدي لأوفر لكم المال لتبنوا به ضيعتنا وتجعلـــوا منها أجمل الضياع .. أريد أن تفكروا في ضيعتنا .. في مستقبلنا .. إذا كان فارس والفتوة لم يورثاكم في أراضيهما وأموالهمـــا فلماذا يورثانكم العداوة والبغضاء والأحقاد ..؟ !

.. صدقوني أنتم بالنسبة لهم لا تعدون سوى أنكم أجـــراء .. تقومون بالأعمال الدنيا .. شأنكم شأن العبيد الذين يأتون بهم .. تعملون مقابل اللقمة ..

أريدكم أن تكونوا أسياداً ، أحراراً .. لمـــاذا لا تريـــدون أن تقتنعوا أن لكم ضيعة - مثلهم - تحتاج إلى توحيد جـــهودكم وعرقكم .. و ..

.. نحن نستطيع أن نصنع حاضرنا وغدنا بأيدينا .. لو جلسنا معاً وفكرنا معاً .. طريق الألف ميل يبدأ بخطوة .. وهذه الضياع .. وبالذات ضيعتنا الفتوة وفارس وضيعة الشيخ أيضاً .. لم تصل إلى ما هي عليه الآن إلا بالعرق والجهد ..

قاطعوها قائلين :

– نحن مقتنعون بما تقولينه يا أم .. وبإذن الله سنكون عند حُسن ظنك بنا .. وعلى مستوى ثقتك ...وسنجعل من ضيعتنا جنة .. وضحكوا عندما قال فهد :

– ومن يدري ربما يأتي إخواننا من ضيعة الفتوة ليعملوا في ضيعتنا ضحكت بدوية وقال علي :

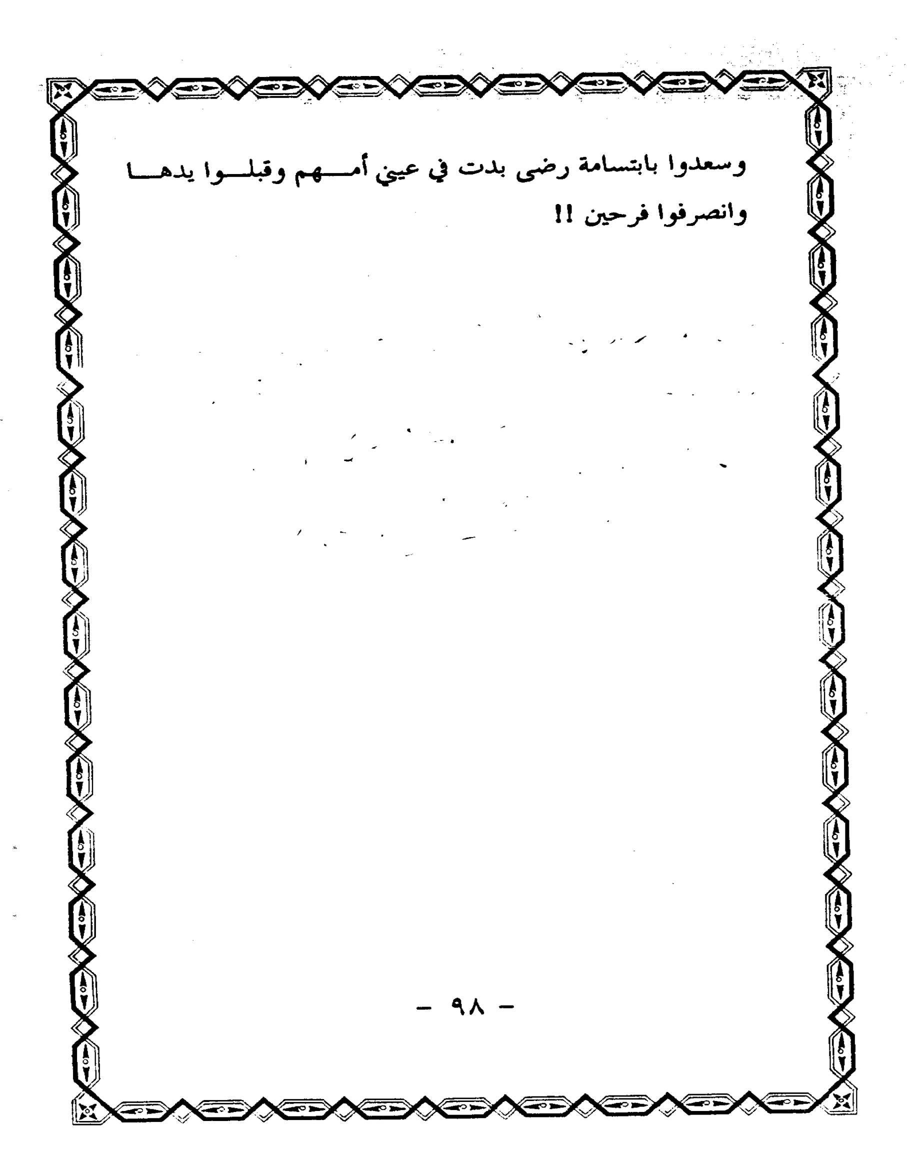
– وأنا أفعل بإخواننا من فارس ما يفعلون معنا !

قال سعد :

– وأنا أُجلِس أولاد الشيخ في آخر الصف ..

قالت بدوية باسمة :

– والله يا أولاد لو خبرتم الحياة لعرفتم أنه ليس هناك مستحيل!



وسعدوا بابتسامة رضى بدت في عيني أمـــهم وقبلـــوا يدهـــا وانصرفوا فرحين !!

لم يستطع علي وفهد أن يكبحا جماح بعض أخوتهما و لم يقدرا أن يسيطرا على نزق البعض المارق الذين ألقوا بأنفسهم في أتون الحرب الدائرة فانحاز بعض أبناء فارس إلى إخوتهم كما انحاز بعض أبناء الفتوة إلى إخوتهم.

قال علي :

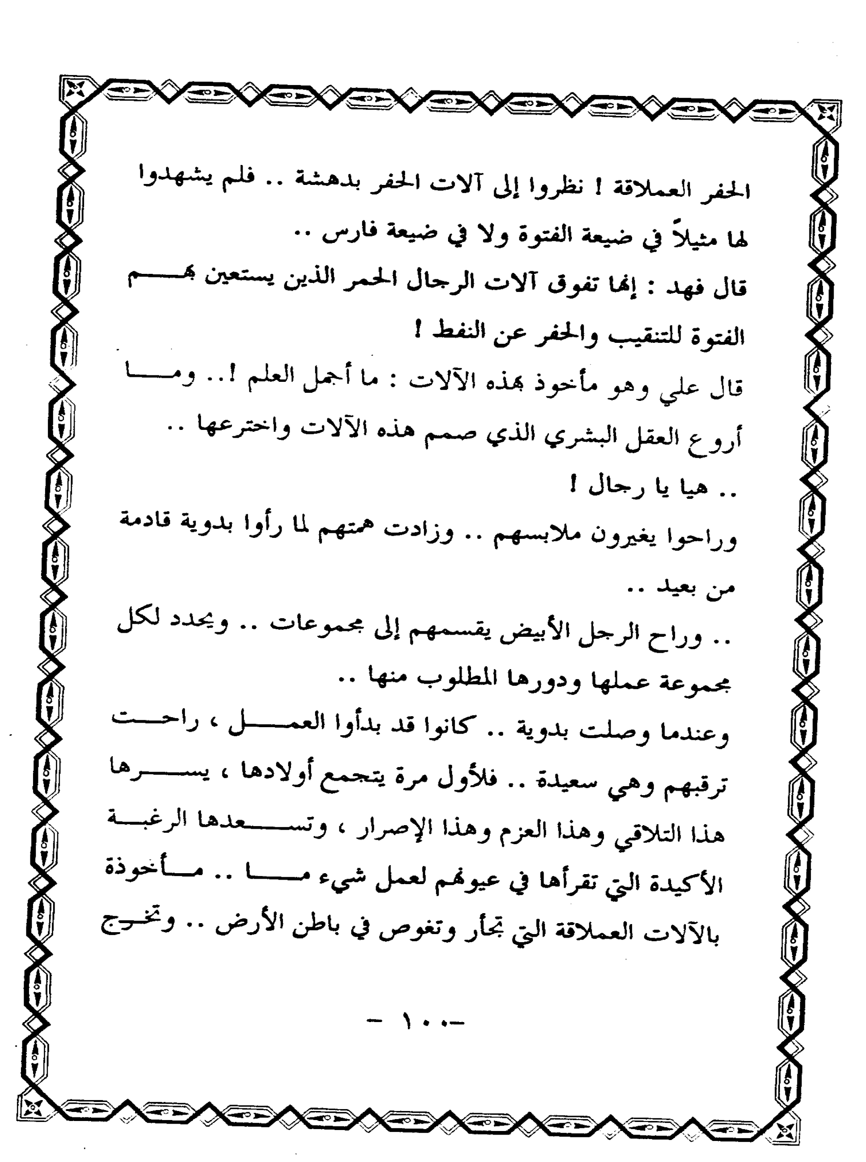
– شيء مؤسف أن يشهر الأخ السلاح في وجه أخيه !

قال فهد :

– والمؤسف أكثر أن يلطخ يده بدم أخيه !

************************

كان كل من علي وفهد قد أقنع بعض أخوته بعدم الذهاب للعمل في ضيعة أبيه انتظاراً لما تسفر عنه الأيام القادمة والحرب الدائرة واقتنعوا بضرورة العمل في الضيعة ومعاونة الرجال البيض الذين سيأتون مع سعد من ضيعة الشيخ لحفر بئر الماء .. خرجوا في استقبال سعد ومعه الرجال البيض بآلات



الحفر العملاقة ! نظروا إلى آلات الحفر بدهشة .. فلم يشهدوا لها مثيلاً في ضيعة الفتوة ولا في ضيعة فارس ..

قال فهد : إنها تفوق آلات الرجال الحمر الذين يستعين بهم الفتوة للتنقيب والحفر عن النفط !

قال علي وهو مأخوذ بهذه الآلات : ما أجمل العلم !.. وما أروع العقل البشري الذي صمم هذه الآلات واخترعها ..

.. هيا يا رجال !

وراحوا يغيرون ملابسهم .. وزادت همتهم لما رأوا بدوية قادمة من بعيد ..

.. وراح الرجل الأبيض يقسمهم إلى مجموعات .. ويحدد لكل مجموعة عملها ودورها المطلوب منها ..

وعندما وصلت بدوية .. كانوا قد بدأوا العمل ، راحت ترقبهم وهي سعيدة .. فلأول مرة يتجمع أولادها ، يسرها هذا التلاقي وهذا العزم وهذا الإصرار ، وتسعدها الرغبة الأكيدة التي تقرأها في عيونهم لعمل شيء ما .. مأخوذة بالآلات العملاقة التي تجأر وتغوص في باطن الأرض .. وتخرج

تلال الرمال والأحجار .. كانت الصبايا قد جئن بالطعام والماء ، وما إن وصلن حتى هلل الرجل الأبيض ، وصلح الأولاد .. وزغردت بدوية وهي ترى ماءً أسودَ يتدفق ! !

.. بينما يلقي الأولاد بالدلاء ليخرجوا الماء ، كان الرجال البيض يتعانقون ، ويرقصون ، ويقولون : نفط .. نفط !.. زيت .. زيت !.. بترول .. بترول !!..

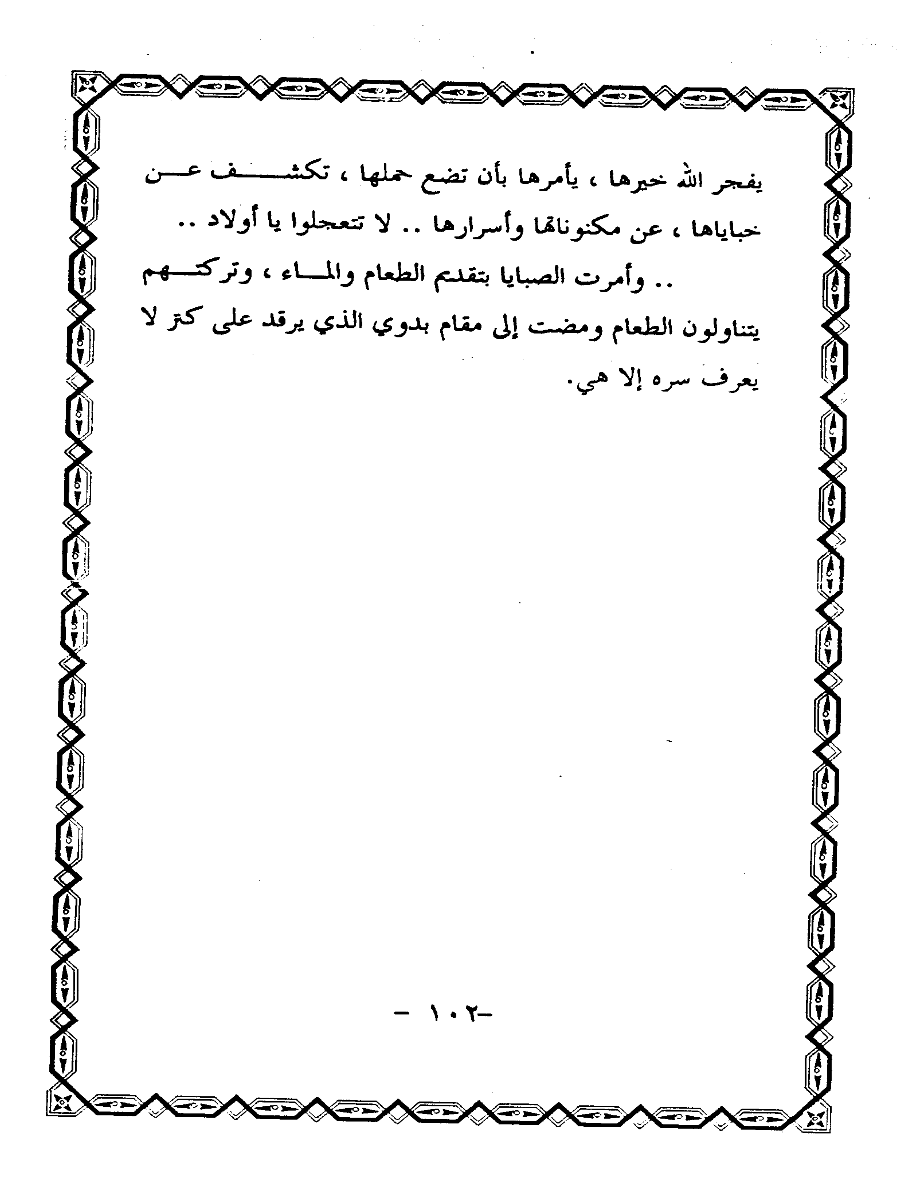
وما إن سمع الأولاد كلمة النفط – حتى تجمعوا في حلقات وراحوا يرقصون ويغنون ، وجلست بدوية تذرف دموع الفرح ، وحلق أولادها حولها يقبلونها ويهنئونها ..

.. وحانت منها التفاتة إلى مقام بدوي ، وقالت :

– حلت البركة .. وكأنك كنت تعلم – أن باطن هذه الأرض الجدباء التي لا زرع فيها ولا ماء يفور بالخير

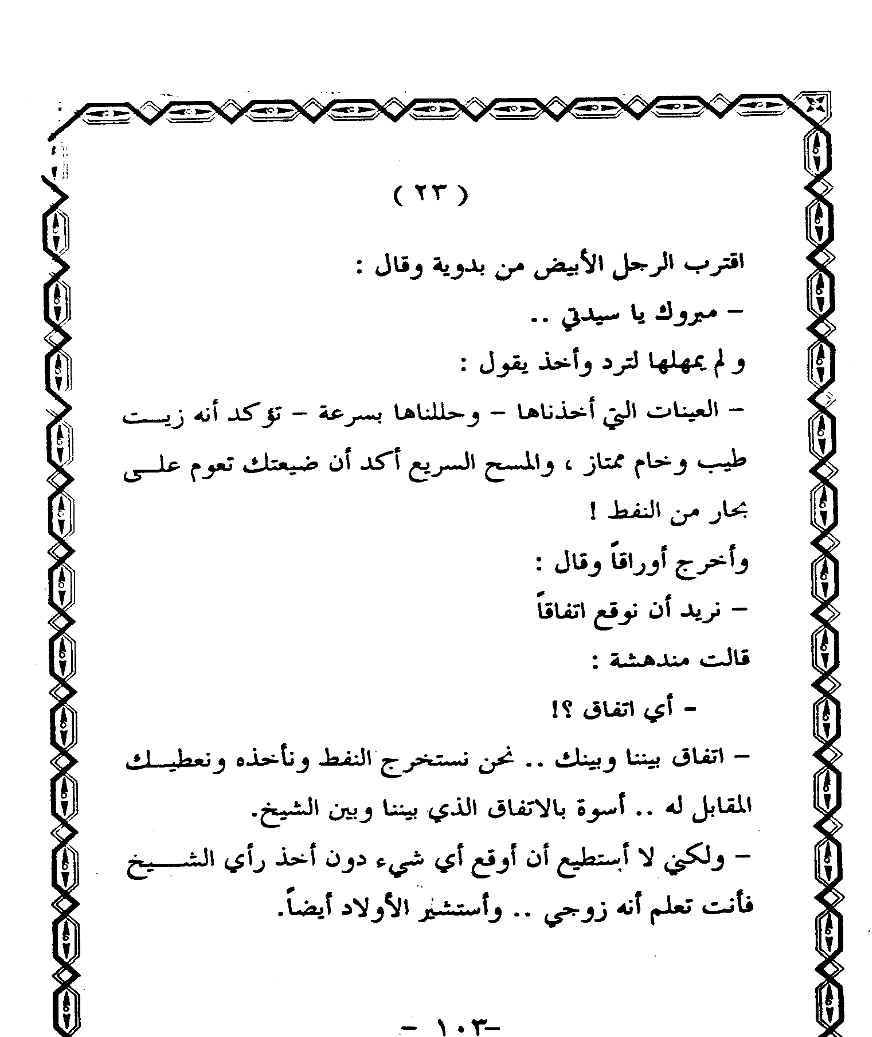
والتفتت إلى أولادها :

صدقوني يا أولاد – إن الله لم يخلق أرضاً عاقراً وأرضاً خصبة ولوداً .. كل أرض في وقت ما ولحظة ما .. في موعد محدد



يفجر الله خيرها ، يأمرها بأن تضع حملها ، تكشف عن خباياها ، عن مكنوناها وأسرارها .. لا تتعجلوا يا أولاد ..

.. وأمرت الصبايا بتقديم الطعام والماء ، وتركتهم يتناولون الطعام ومضت إلى مقام بدوي الذي يرقد على كتر لا يعرف سره إلا هي.



( ٢٣ )

اقترب الرجل الأبيض من بدوية وقال :

- مبروك يا سيدتي ..

ولم يمهلها لترد وأخذ يقول :

- العينات التي أخذناها - وحللناها بسرعة - تؤكد أنه زيت طيب وخام ممتاز ، والمسح السريع أكد أن ضيعتك تعوم على بحار من النفط !

وأخرج أوراقاً وقال :

- نريد أن نوقع اتفاقاً

قالت مندهشة :

- أي اتفاق ؟!

- اتفاق بيننا وبينك .. نحن نستخرج النفط ونأخذه ونعطيك المقابل له .. أسوة بالاتفاق الذي بيننا وبين الشيخ.

- ولكني لا أستطيع أن أوقع أي شيء دون أخذ رأي الشيخ فأنت تعلم أنه زوجي .. وأستشير الأولاد أيضاً.

قال : نحن نعلم أنه زوجك .. ولكن الضيعة ضيعتك وللزوجة العاقل الرشيد حرية التصرف في أملاكها ، ولا نظن أن الشيخ يطمع في إرثك ولا الأولاد يمانعون .. فهم بحاجة إلى الأموال ليبدأوا حياتهم.

قالت : لا تتعجل .. وليفعل الله ما فيه الخير ..

************************

جلست بدوية في غرفتها تفكر في الثروة التي تفجرت من باطن الأرض ، وراحت تتصور ضيعتها التي راودتها كثيراً في صحوها ومنامها .. لأول مرة يجيء الأولاد دون دعوة .. فرادى وجماعات .. مهللين يفترشون ساحة الدار .. راحت تنظر إليهم من النافذة .. فتغتبط وهي ترى الفرحة التي تغطي وجوههم .. حاولت أن ترهف السمع لتسمع حواراتهم ، حوارات متداخلة ، يجلسون مثنى مثنى ..

– سنبدأ بالكهرباء ، لو أدخلنا الكهرباء لصار الليل نهاراً في ضيعتنا

-نعم الكهرباء في ضيعة الفتوة وفي ضيعة فـارس وفي ضيعـة الشيخ أيضاً .. تحيل الليل عندهم إلى نهار

- الكهرباء يا صاحبي يعني ثلاجة لحفظ الطعام والماء المثلـج ، وغسالة لتنظيف الملابس ، ومكواة لكيـها ، يعـني مروحـة ووحدات تكييف تبث الهواء البارد في قيظ ضيعتنا الحار ، يعني تلفازاً ينقل لك أحداث العالم وتشاهد الأفلام والمسلسـلات ، والممثلات الجميلات ، والبنات الفاتنات !.. ومباريات كـرة القدم ..

ضحك الولد وقال :

- فعلاً الكهرباء كل ما قلت ، والأهم مما قلته ، أنها تعني إقامة مصنع ، الآلات الحديثة تعمل بالكهرباء في الضياع التي حولنـا .. راحت بدوية تصغي إليهم ، وتستمع من خلف النـافذة إلى حوارهم .. وسرحت مع الكهرباء .. ووجدت نفسها تقول : فعلاً ستنقلنا الكهرباء نقلة كبيرة .. وتضعنا على أول الطريـق الصحيح .. فحركة الحياة تعتمد في معظمها على الكهرباء .. .. تنتقل بأذنيها بين الأولاد

- سنشتري السيارات ، سيارات للركوب ، وسيارات للنقل ،
- نمهد الشوارع ونرصفها ..
- نمد المياه في مواسير إلى البيوت
- نقيم شبكة صرف صحي ..
- نعيد تصميم البيوت لتستوعب التكنولوجيا الجديدة ..
- نهدها جميعاً ! ونعيد تخطيط الشوارع
- نحتاج إلى مدرسة ومسجد ومستشفى
- ومطبعة وجريدة.

************************

قال سعد : هدوء من فضلكم .. أرى أن كل طلباتكم مشروعة ولكن علينا أن نفكر بهدوء أكثر وعقلانية أشد .. بحيث لا يأخذنا بريق المال وينسينا أنفسنا .. ألا تفكرون في مهندس المباني وعامل البناء ، والمدرس والطبيب وإمام المسجد ، والمطبعجي و الجـو رنالجي والميكانيكى والسائق والإذاعي ، .. عشرات المهن والحرف استجدت ونحتاج مهنيين وحرفيين وعمالاً وموظفين .. وأنتم لا تجيدون

غير الرعي والصيد والفلاحة. وبعض الأعمال الدنيا التي كنتـــم تمارسونها في ضياع الفتوة وفارس والشيخ ، ليست المســألة إذاً بالسهولة التي تتصورونها

-بالمال كل شيء يصبح ممكناً ، الفتوة بماله ســـخر الرجـــال الحمر لخدمة ضيعته وتحديثها، والشيخ بماله سخر البيض لخدمة ضيعته وتحديثها وفارس أيضاً ، ونحن بالمال – نستطيع أن نجيء برجال من مصر إن شئت ، ومن الهند ، ومن الشـــام، ومـــن اليمن ، ومن أي مكان في العالم ..

قال علي : هدوء .. هدوء من فضلكـــــم – إن مـــا يقصده سعد أن نكون نحن على قدر المسئولية وعلى مســـتوى هذا المال وأن نكون قادرين على استيعاب التكنولوجيا الجديدة أو على الأقل قادرين على إدارة دفة الضيعة التي تعتمد علـــى العلم.

– نحن شرقنا وغربنا في الضياع التي حولنا وتعاملنا مع هـــذه التكنولوجيا

– كنتم تتعاملون معها كمستهلكين

- أتريد أن ننتج العلم بين يوم وليلة ؟!

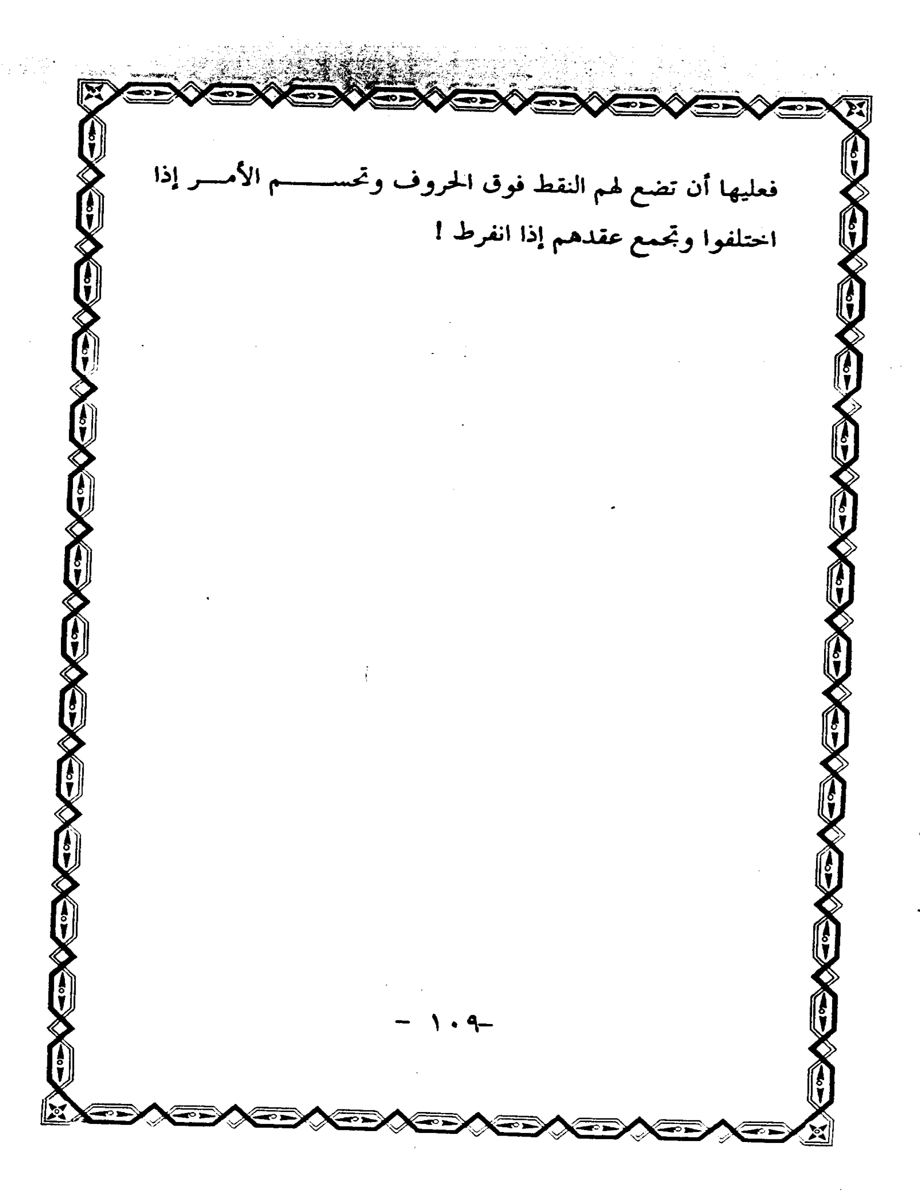
- لا أقصد أن ننتج العلم بين عشية وضحاها .. ولكننا نضعه هدفاً .. فإذا كانت الضيعة ستنشأ بالعلم .. من باب أولى أن يديرها متعلمون !

صاح الأولاد غاضبين وقالوا :

- تقصد أن ننسحب ونترك لك ولسعد ولفهد ولكل من التحق بمعاهد التعليم في ضياع الفتوة وفارس والشيخ .. نترك لكم إدارة الدفة .. وأن نكون في ضيعتنا مثلما كنا في الضياع المجاورة .. أُجراء مقابل اللقمة !!

نهض فهد من مجلسه وصاح فيهم قائلاً :

- تباً لكم .. لماذا تحرفون كلام الرجل عن موضعه ، وتأولونه على غير قصده ، الضيعة لنا جميعاً بقانون الله وعدله وشرع نبيه .. كل ما هناك أننا يجب أن ندرس جيداً ما جرى في الضياع التي حولنا وسبقتنا ، نبدأ من حيث انتهى الآخرون ونتدارك أخطاءهم ولا تدري بدوية - لماذا بدأت تشعر بثقل المسئولية وآثرت ألا تخرج للأولاد ولتتركهم ليتدبروا الأمور ..



فعليها أن تضع لهم النقط فوق الحروف وتحسم الأمر إذا اختلفوا وتجمع عقدهم إذا انفرط !

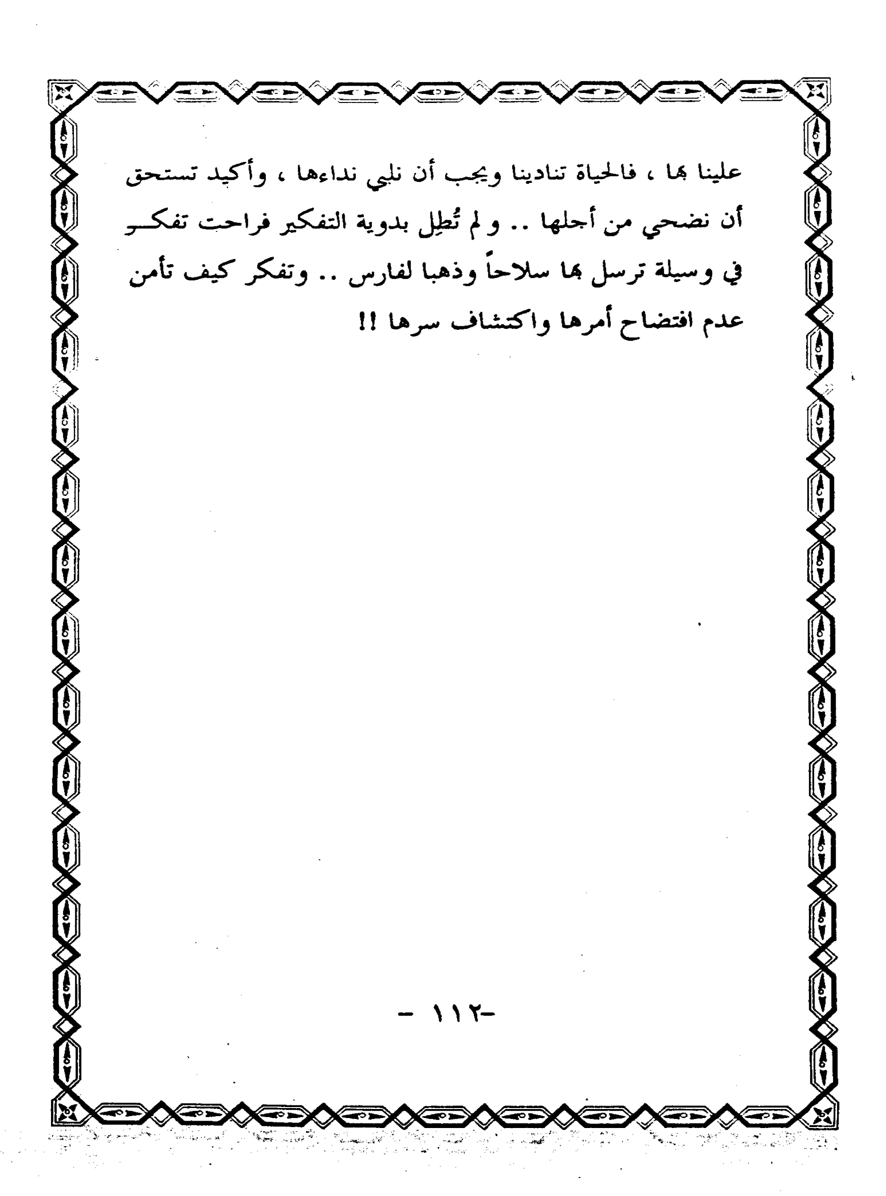
( ٢٤ )

كان الفتوة قد اقتحم بعسكره ضيعة فارس ، هـــدم بيوتاً ، وحرق زروعاً ، وقطع أشجاراً ، وقتل شيوخاً وأطفـالاً ، وسبى نساء .. و ... ارتفع صوته ، وانتفش ريشه ، خـالفت بدوية أكثر ، فلو حالفه النصر واستقر مقامه لكانت أول لقمة سائغة في فمه .. الآن أصبح للحياة معنى .. هل أنتظر الشـيخ وأصدقاءه البيض – حتى يجمعوا السلاح لفارس .. ليحرر مـا احتله الفتوة من أرضه – ربما يطول الوقت .. قـد يسـتغرق وصول السلاح شهراً أو شهرين .. ومن يدري ما الذي يمكـن أن يحدث لو أن الأقدار جعلت الفتوة في موضع المنتصـــر .. الذي بيني وبين فارس يسمح لي بمديد العون لــه ومسـاعدته .بيننا ود قديم وعشق وغرام وأولاد. مستحيل أن تخضع ضيعـة فارس لسيطرة الفتوة ، فلو حصل .. لابتلعها الشيخ وابتلعـني .. أنا سمكة صغيرة .. كتكوت مازال يغطيه الزغب .. هـل أقف مكتوفة اليدين وأنا أرى خطراً غريباً يتهددني .. لمـاذا لا أعمل على دفع الخطر قبل أن يقع .. يعجبني في الشيخ أن لــه

**قرون استشعار شديدة الحساسية تلتقط الخطر عن بعد .. فأين قرون استشعاره .. فإذا فكر الفتوة في أكل الشيخ فلابـــد أن يبتلعني قبله .. فلا يمكن أن يدخل لضيعة الشيخ إلا من خـــلال ضيعتي .. فماذا ينتظر الشيخ ؟**

الشيخ عنده الأموال ، وعنده السلاح ، وعنده الرجال ولديـــه الأصدقاء .. أما أنا – يا حسرتاه – لم تزل الأموال مدفونـــة في بطن الأرض والسلاح مدفوناً .. وليس عنــــدي رجـــال ولا أصدقاء – غير بضعة آلاف من البدو متفرقين .. ذهب ريحـــهم بعد موت بدوي ..

لماذا الدنيا هكذا .. وما إن بدأ ت تفتر لنا ثغرها عن بســـمة حلوة .. وتوحي لنا بأيام هنية قادمة .. حتى اشتعلت الحـــرب ،هل قدرنا ألاحظ لنا فيها .. هل فعلاً أننا لم نخلق إلا للســـعي والرعي والخيام والبداوة والحياة القاسية .. أبداً .. أبداً .. لـــن يكون .. فلن ندفن رؤوسنا في الرمال كالنعـــام .. ســـنتلون كالحرابي .. سنحوم كالفراشات ونلدغ كالنحل ، ســـنلبس ألف قناع وقناع .. المهم أن نعيش ونستمتع بالنعم التي منَّ الله



علينا بها ، فالحياة تنادينا ويجب أن نلبي نداءها ، وأكيد تستحق أن نضحي من أجلها .. و لم تُطِل بدوية التفكير فراحت تفكـر في وسيلة ترسل بها سلاحاً وذهبا لفارس .. وتفكر كيف تأمن عدم افتضاح أمرها واكتشاف سرها !!

قال الشيخ لبدوية :

– ما يحيرني ويحير أصدقائي البيض .. من أين جـــاء فـــارس بالسلاح الذي مكنه من دحر الفتوة و لم يكتف بطرد الفتـــوة من ضيعته ولكنه توغل في ضيعة الفتوة لمسافات طويلة .. كنـا قد أوشكنا على الحصول على تنازلات منه وإنهـــاء مصـــالح متعلقة نظير إعطائه السلاح.

قالت بدوية : وهل كان السلاح موجوداً !

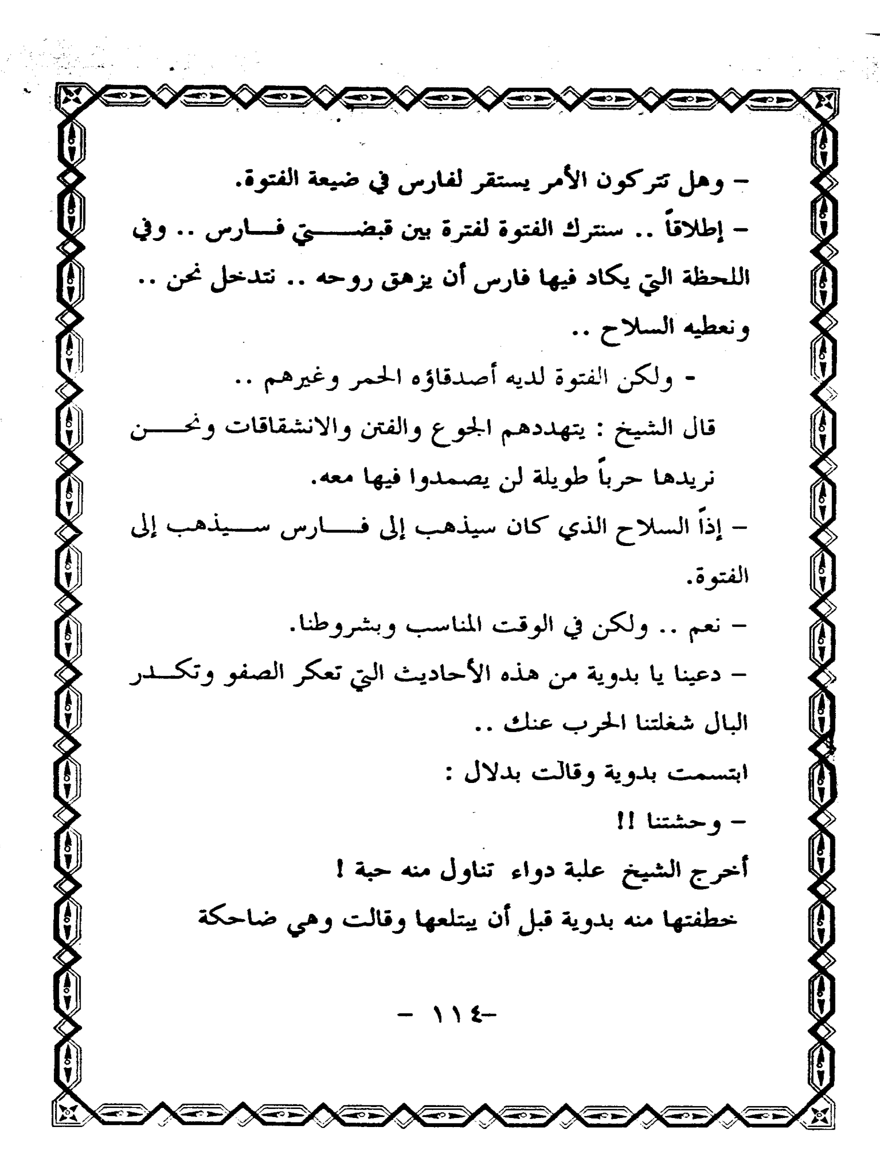
– نعم .. السلاح موجود بكثرة .. ولكننا كنـــا نمـــاطل في تسليمه له .. فوجود رقبته بين يدي الفتوة كان سيجعله يركع ويلبي كل ما نطلبه منه.

– وإذا كان رفض مطالبكم ..!

– أعتقد أنه كان كالغريق الذي يتعلق بقشة .. وفي وضـــع لا يسمح له بالمفاضلة أو المقارنة أو حتى التفكير ..

– كان سيلبي كل ما نطلبه منه.

قالت بدوية :



- وهل تتركون الأمر يستقر لفارس في ضيعة الفتوة.

- إطلاقاً .. سنترك الفتوة لفترة بين قبضتي فارس .. وفي اللحظة التي يكاد فيها فارس أن يزهق روحه .. نتدخل نحن .. ونعطيه السلاح ..

- ولكن الفتوة لديه أصدقاؤه الحمر وغيرهم ..

قال الشيخ : يتهددهم الجوع والفتن والانشقاقات ونحن نريدها حرباً طويلة لن يصمدوا فيها معه.

- إذاً السلاح الذي كان سيذهب إلى فارس سيذهب إلى الفتوة.

- نعم .. ولكن في الوقت المناسب وبشروطنا.

- دعينا يا بدوية من هذه الأحاديث التي تعكر الصفو وتكدر البال شغلتنا الحرب عنك ..

ابتسمت بدوية وقالت بدلال :

- وحشتنا !!

أخرج الشيخ علبة دواء تناول منه حبة !

خطفتها منه بدوية قبل أن يبتلعها وقالت وهي ضاحكة

- أخشى أن تكون وصفة من وصفات صديقك شكرون !!

ضحك الشيخ وقال :

- أبداً إنها حبة من أصدقائي البيض تعيد الشباب !!

تدللت وخبطت على وركه وقالت وهي تلقي بالحبة من النافذة :

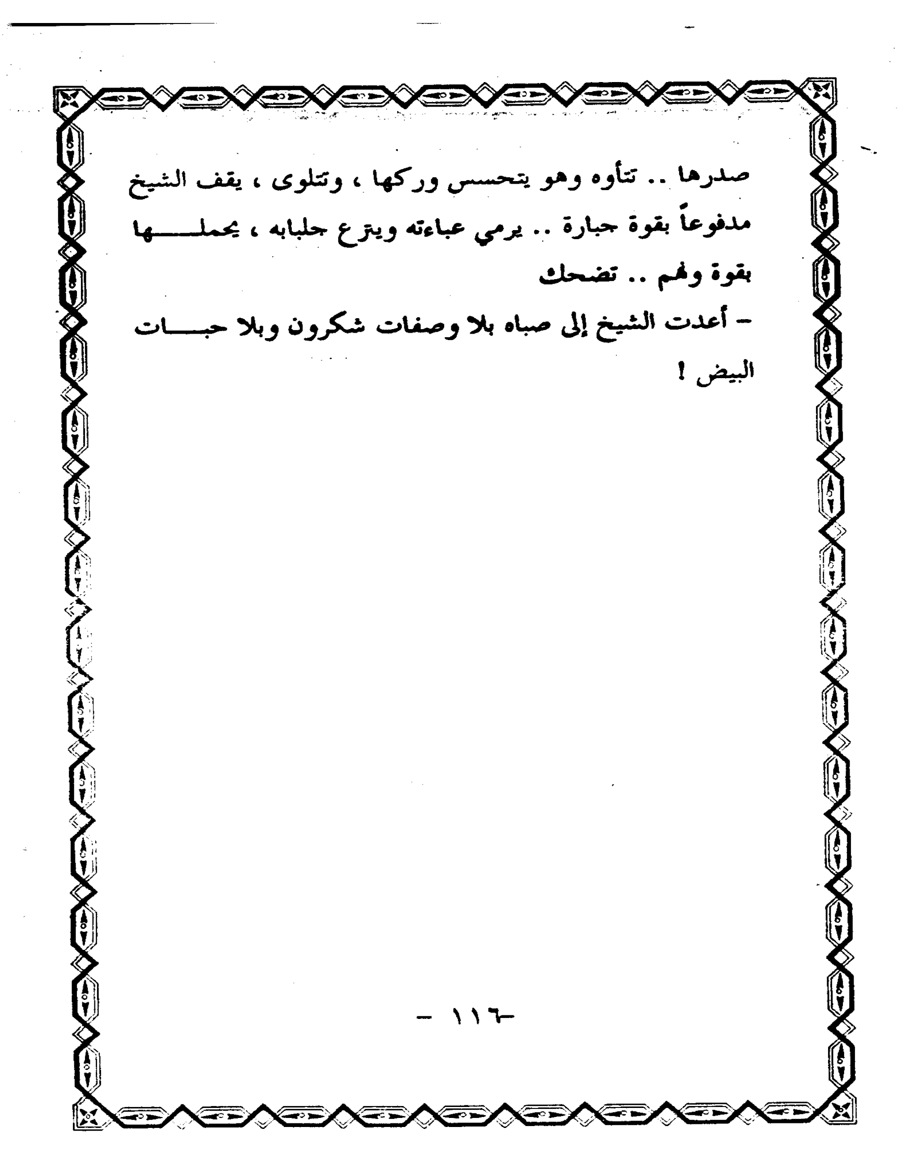
- مازلت شباباً

وقامت ، وأغلقت النافذة ، وخلعت جلبابها .. وارتدت قميص نوم أحمر شفاف يكشف أكثر مما يستر وسكبت زجاجة عطر على جسمها الأبيض وأوقدت الشموع ..

وبدت على ضوء الشموع ، متألقة ومتوهجة ، شعرها الأسود الفاحم يبدو كقطع الليل ، تتثنى وتتلوت وهي تمشي .. حملق فيها الشيخ بنهم .. شدت العود المعلق على الجدار .. وقالت بدلال وغنج وهي تناوله له :

- رقصني !.. رقصني يا شيخ !!

راحت ترقص وتدور في الحجرة ، تهز خصرها وردفيها ، ترعش صدرها وبطنها ونهديها ، تنثني على الشيخ فيلثم



صدرها .. تتأوه وهو يتحسس وركها ، وتتلوى ، يقف الشيخ مدفوعاً بقوة جبارة .. يرمي عباءته وينزع جلبابه ، يحملـــها بقوة ونهم .. تضحك

- أعدت الشيخ إلى صباه بلا وصفات شكرون وبلا حبـــات البيض !

( ٢٦ )

قال الشيخ لبدوية :

- اتفقت مـــع أصدقـــائي البيـــض أن يقومـــوا بـــالبحث والاستكشاف والتنقيب عن النفط في ضيعتك واســتخراجه .. وسيأخذونه بنفس السعر الذي يأخذون به نفطي

- افعل ما تراه صواباً يا سيدي.

قال الشيخ : سيكون لضيعتك شكل آخر ، ضيعتك صغـــيرة المساحة وعدد سكانها قليل ، والأموال التي ستعود عليك مـــن النفط أموال طائلة .. قليل منها يجعل ضيعتك جنة ، أتوقـــع أن تعيشوا في ترف ورفاهية لم تعشها ضيعة منذ الخليقة.

ضحكت بدوية :

- أحسد يا مولاي ؟!

ضحك الشيخ وقال :

- أبداً والله .. ولكن يشغلني أمر الضيعة بعد أن تفجر فيـــها ينابيع الخير.

- أراد الله أن يعوضنا عن سنوات بؤس وشقاء وحرمان وتشرد .. عاشها الآباء والأجداد.

- أفهم أنك ستمدين يدك للبدو وتوطنيهم وتجعلين لهم نصيباً!

- هل لديك مانع ؟

- أبداً .. حسناً تفعلين !.. فالضيعة تحتاج إلى سكان.

-أليس الأقربون أولى يا سيدي ؟

- بكل تأكيد والبدو أولى .. وأنت كواحدة منهم – ستضمنين ولاءهم – ووجود مقام بدوي سيكون قبلة لهم ورمزاً .. يعني باختصار ستوظفينهم وتستثمرينهم جيداً.

وعموماً أستأذن الآن .. فأنا على موعد هام بعد قليل ومازال أمامنا متسع من الوقت لنفكر في مستقبل الضيعة !

************************

قالت بدوية لنفسها :يجب أن نبدأ بسرعة ، فالفتوة مشغول في حربه مع فارس .. وإطالة الحرب بينهما فرصة طيبة لنا لنعمل في ضيّعتنا بلا عائق وبلا خوف ..

فلو وضعت الحرب أوزارها لطمع الفتوة في ضيعتنا .. ضيعتنا فيما مضى كانت لا تغري أحداً .. ولكنها الآن .. قد تغري الفتوة أو غيره .. قد يسيل لعابه على أنهار النفط المتدفقة .. وقد يسرق بريق الذهب عينيه ويخلب لبه لو علم به ..

**********************

لماذا يفترس الخوف صدر الذي يستشعر الغنى ؟!

هل الثراء مرتبط دوماً بالخوف والقلق ؟..

كيف نكون أثرياء بلا خوف وبلا قلق ..؟

هل يستمر النوم هارباً مني ؟ .. كم أتمنى أن أقبض على هذا النوم وآخذه في حضني وأنام ..!!

******************************

ولما أحست بدوية بأن ليلتها ستطول ، وسيجافيها الكرى بعثت في استقدام سعد وعلي وفهد ليسروا عنها .. لينتشلوها من حالة القلق .. لتستمع إليهم ويستمعوا إليها .. تتمنى لو تدفن رأسها في صدر أي منهم لتستشعر حناناً مفقوداً

.. تلقي برأسها على صدر أي منهم وتبكي .. تنظر في المـرآة .. فإذا بعينيها حمراوتين متورمتين من طول السهر تتحســـس وجهها فتستشعر شحوبه ..!

.. في أيام قليلة خف جسدها ونقص وزنها .. ولمـــا سمعت طرقاً على الباب .. همت مسرعة .. استقبلتهم ببشاشـة وفرحة ، راحت تتحسس وجوههم النابتة ، وتقبل رؤوسهم.

– لا أريد أن تفارقوني .. لا تغربوا عن عيني لحظة .. لماذا لا تعيشون معي في هذه الفيلا الواسعة ..؟

–..ولكن يا أم أنت امرأة متزوجة .. و ..

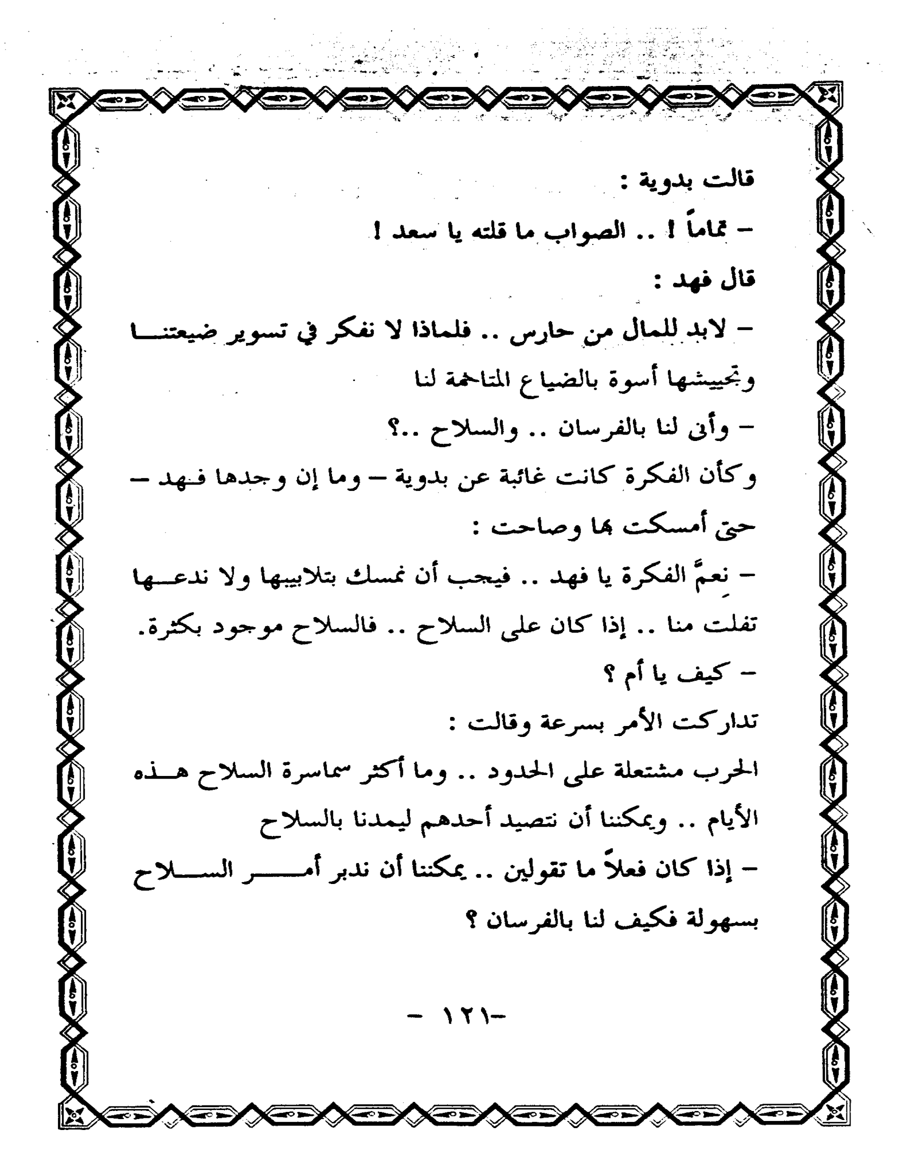
– الزوج مشغول ولا يزورني إلا نادراً ، والخوف والوحـــدة يفترساني !

ضحك علي وقال :

– لا أصدق أن أمي تخاف

قال سعد ضاحكاً :

– إنها لا تخاف عفريتاً أو جنياً .. ولكنه الخوف والقلق الـذي ينتاب الأثرياء فينغص عيشتهم ويقلق مضاجعهم !



قالت بدوية :

- تماماً ! .. الصواب ما قلته يا سعد !

قال فهد :

- لابد للمال من حارس .. فلماذا لا نفكر في تسوير ضيعتنا وتحييشها أسوة بالضياع المتاخمة لنا

- وأنى لنا بالفرسان .. والسلاح ..؟

وكأن الفكرة كانت غائبة عن بدوية - وما إن وجدها فهد - حتى أمسكت بها وصاحت :

- نِعمَّ الفكرة يا فهد .. فيجب أن نمسك بتلابيبها ولا ندعها تفلت منا .. إذا كان على السلاح .. فالسلاح موجود بكثرة.

- كيف يا أم ؟

تداركت الأمر بسرعة وقالت :

الحرب مشتعلة على الحدود .. وما أكثر سماسرة السلاح هذه الأيام .. ويمكننا أن نتصيد أحدهم ليمدنا بالسلاح

- إذا كان فعلاً ما تقولين .. يمكننا أن ندبر أمر السلاح بسهولة فكيف لنا بالفرسان ؟

قالت : إذا نظرنا حولنا .. نجد عشرات المئات من البدو ومتفرقين في الصحاري الواسعة لا يتقيدون بأرض ولا يستقرون في مكان وهم لنا أهل .. وكبيرهم قابع في ضيعتنا .. فنحن أولى بهم وهم أولى بنا. فلماذا لا نوطنهم في ضيعتنا وننتقي منهم الصناديد الأشداء

.. وتشعب بهم الحوار وطرقوا موضوعات شتى. وفي المزيع الأخير من الليل استأذنوا بالانصراف وأحست بدوية بدبيب الراحة يغزو قلبها وما إن وضعت رأسها على الوسادة حتى غلبها النوم .. فنامت .. نامت بعمق !

قال كبير العسس للشيخ :

العمل يجري في ضيعة بدوية على قدم وساق ، يصلون الليل بالنهار وبعيداً عن عمليات التشييد والبناء وحركة التعمير ..ورصف الطرق وإنشاء الكباري وشبكات المياه والصرف الصحي ، وشبكات الكهرباء ودائرة الاتصالات من البرق والهاتف وخلافهما .. استرعى انتباهنا تسوير الضيعة بسور عظيم .. وقف عليه رجال أشداء .. يقبضون بأيد من حديد على بنادق ورشاشات !!

شرد الشيخ قليلاً وقال :

– قد ألتمس لك العذر يا بدوية إذا أقمت السور على حدودك مع الفتوة ومع فارس .. أما أن تقيميه على حدود ضيعتي أيضاً .. فلن أغفر لك هذا ؟!

.. أتضعينني في سلة واحدة مع فارس والفتوة ؟!

.. وقال الشيخ لكبير العسس والغضب يتملكه

– قبل أن يطلع النهار تهدمون السور !

- السمع والطاعة يا مولاي !

وانصرف كبير العسس وترك الشيخ وهو يضرب كفاً بكف لا يكاد يصدق أن بدوية تفعل هذا !!

************************

باكية أقسمت له بدوية أنها لم تكن تقصد

قال الشيخ :

- إذا كنت غبياً في فهم مدلول السور ، فماذا تعنين بالعسكر والسلاح ؟ .. ومن أين لك بالسلاح ؟!

المفروض يا سيدتي أنك زوجتي وأول واجبات الزوج حماية زوجته وأولاده .. فإذا كنت عاجزاً عن حمايتك .. كزوج وكأب .. فلا ضرورة لي .. هل تظنين أنك بهذا السور وهؤلاء العسكر قادرة على تأمين ضيعتك ؟!

مفهوم الأمن يا هانم .. أوسع .. وأشمل !

قالت وهي تمسح دموعها !

**– اغفر لي يا سيدي هذا الخطأ .. وأعدك أنه لن يتكـــرر .. فاكظم غيظك يا سيدي .. واعف وأنت قادر ..**

**– أتقيمين لأولاد فارس مسجداً يرفعون فيه أذاناً غير أذاننـــا ويؤدون صلاة غير صلاتنا !**

**.. أتساوين أولادك غير الشرعيين من الفتوة بأولادي !**

**.. عن أي شيء أعفو .. وعن أي شيء أكظم غيظي ؟!**

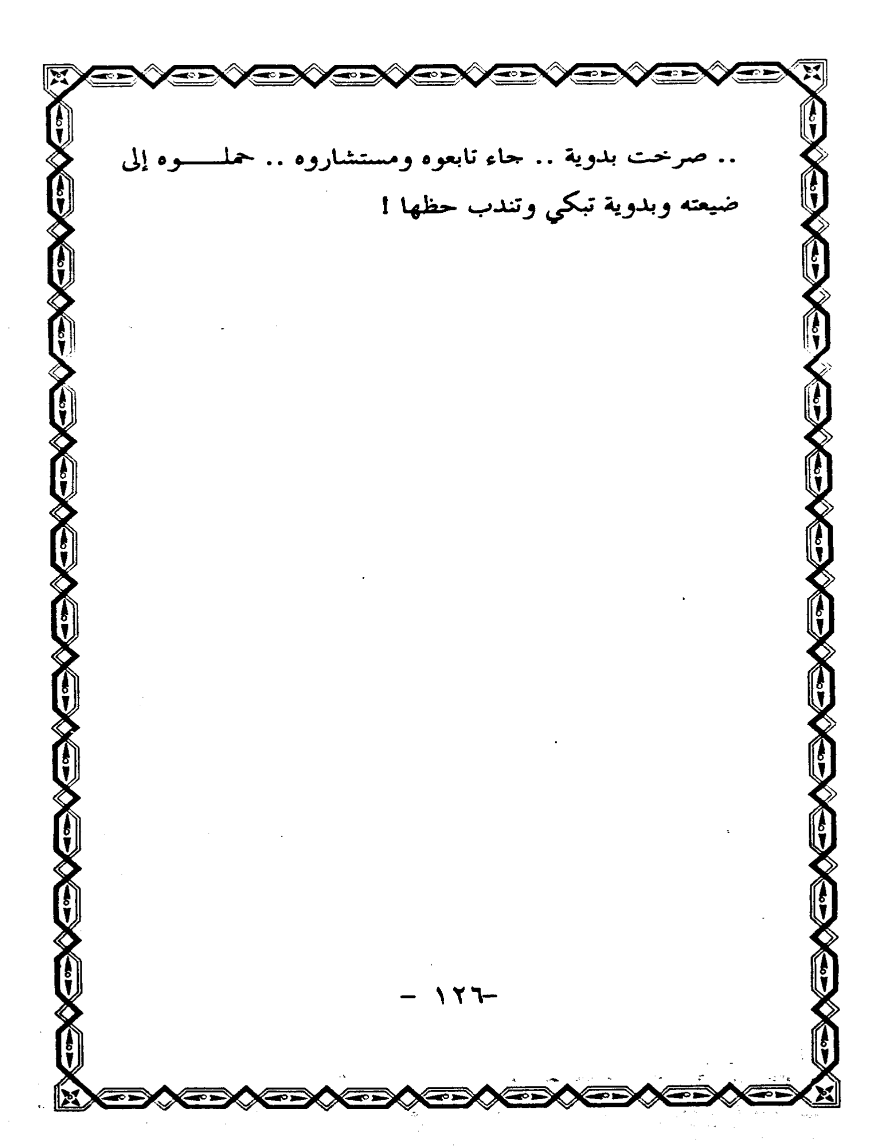
.. ليس الخطأ خطأك ، ولكنه خطئي أنا ، أعطيتك مساحة من الحرية لم أعطها لزوجة قبلك .. تركت لك الحبل على الغارب .. وماذا كانت النتيجة ..؟!

الزمي بيتك يا بدوية ولا تغادريه .. فحقك علينا أن نكســوك ونطعمك .. ونؤمنك ..!

كانت بدوية تبكي وهي ترى اشتداد غضب الشيخ ولا تزيــد على أن تقول !

– اهدأ .. أخاف على صحتك ، وبلغ الغضب بالشيخ مداه .

**ارتفع ضغطه وزادت نسبة السكر في جسمه .. أحـسَّ بـأن الأرض تميد تحت قدميه .. بأنه يدور في فراغ كبير .. وسـقط**



.. صرخت بدوية .. جاء تابعوه ومستشاروه .. حملـــــوه إلى ضيعته وبدوية تبكي وتندب حظها !

( ٢٨ )

**استشاط أولاد بدوية من فارس ومن الفتـــوة غضبـــاً وجهروا لأمهم بأن نوايا الشيخ قد بانت.**

يريد أن ينصب نفسه وصياً علينا ، نتكلم بلسانه ونفكر بعقلـه

قالت بدوية بحسم :

لا تسيئوا الظن بالشيخ ولا تنسوا أنه زوجي ولي منه أولادٌ هم إخوة لكم .. وإذا كان هناك ثمة سوء تفاهم فأنا كفيلة بإزالتـه

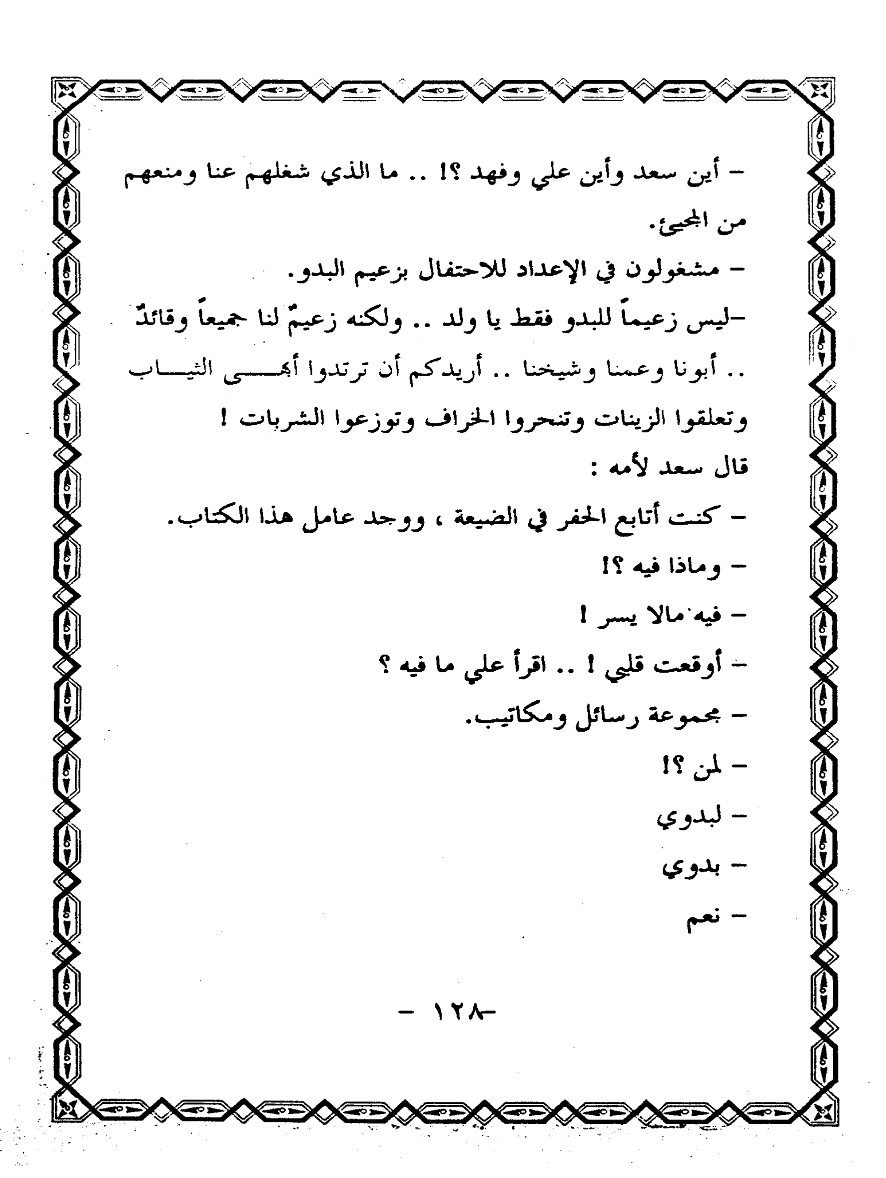
وصمتت قليلاً ثم قالت :

– ولا تنسوا أن تدعوا له في صلواتكم ، وتطلبوا من الـرب أن يفرج الهم ويزيل الكرب ويزيح الغمة وأن تدعوا له بالشـــفاء وأن يعافيه الله في بدنه ويمتعه بالصحة ويمد لنا في عمره ..

وقالت متوعدة :

– تالله لو سمعت أن واحداً منكم قد تفوه بكلمة ســوء عـــن الشيخ لقطعت لسانه وجعلته عبرة !

... وقالت لتنهي الحديث وتفتح باباً آخر للحوار :



- أين سعد وأين علي وفهد ؟! .. ما الذي شغلهم عنا ومنعهم من المجيء.

- مشغولون في الإعداد للاحتفال بزعيم البدو.

-ليس زعيماً للبدو فقط يا ولد .. ولكنه زعيمٌ لنا جميعاً وقائدٌ .. أبونا وعمنا وشيخنا .. أريدكم أن ترتدوا أبهى الثياب وتعلقوا الزينات وتنحروا الخراف وتوزعوا الشربات !

قال سعد لأمه :

- كنت أتابع الحفر في الضيعة ، ووجد عامل هذا الكتاب.

- وماذا فيه ؟!

- فيه مالا يسر !

- أوقعت قلبي ! .. اقرأ علي ما فيه ؟

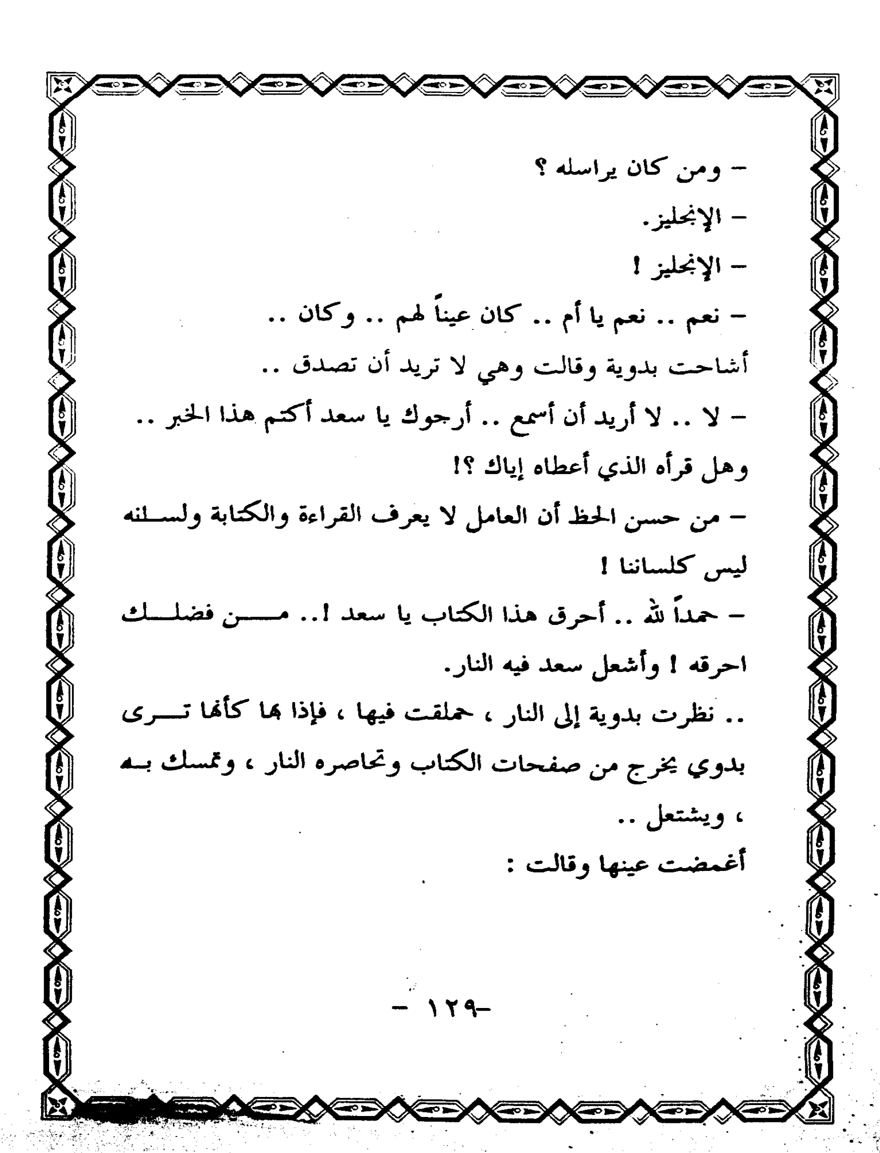
- مجموعة رسائل ومكاتيب.

- لمن ؟!

- لبدوي

- بدوي

- نعم



– ومن كان يراسله ؟

– الإنجليز.

– الإنجليز !

– نعم .. نعم يا أم .. كان عيناً لهم .. وكان ..

أشاحت بدوية وقالت وهي لا تريد أن تصدق ..

– لا .. لا أريد أن أسمع .. أرجوك يا سعد أكتم هذا الخبر .. وهل قرأه الذي أعطاه إياك ؟!

– من حسن الحظ أن العامل لا يعرف القراءة والكتابة ولسانه ليس كلساننا !

– حمداً لله .. أحرق هذا الكتاب يا سعد !.. من فضلك احرقه ! وأشعل سعد فيه النار.

.. نظرت بدوية إلى النار ، حملقت فيها ، فإذا بها كأنها ترى بدوي يخرج من صفحات الكتاب وتحاصره النار ، وتمسك به ، ويشتعل ..

أغمضت عينها وقالت :

- اسمع .. اسمع يا سعد .. بدوي عند الناس بطل ويجـــب أن يبقى بطلاً .. سنحتفي به ، ندعو الشعراء والمداحـــين ورواة السير.

- ابن زبيبة يا سعد !

- عنترة بن شداد.

- نعم وابن خضرة أيضاً.

- أبو زيد الهلالي سلامه.

- نعم .. نعم .. عنترة وأبو زيد لو غربلت مـــا يقولـــه رواة السير عنهما بالعقل.

ماذا يتبقى منهما ؟

- لا شيء !

- وهل تجرؤ على أن تقول هذا في مجلس رواة السيرة ؟ فلو حصل – لهاجت الناس وماجت .. النـــاس هـــم الذيـــن سيقومون ليفتكوا بك .. والرواة سيفرحون بما يفعلونه بـــك ، لأنهم هم الذين صنعوه .. وأكلُ عيشهم من هذا الصنـــع .. رواة السيرة.

بجفنة مال – يصنعون من الصعلوك بطلاً.
بدوي يا سعد عانق أحلام الناس وحققها ، ركب الصعـــاب وحقق المستحيلات ، كان يُدخل الإنجليز الجحور كالجرذان..! صارع الأسود في البراري .. كان لقمة للجـــائع ، وثوبـاً للعاري ، كان صدقاً وخيراً ، كان حقاً وعدلاً .. أتفهمني يـا سعد ؟!
– نعم .. نعم يا أم ! .. فالشعراء والمداحون والرواة أطلعـوني على ما سيقولونه للناس .. وكأنهم كانوا يقرؤون أفكارك .. جعلوه كالمسيح يُبرئ الأكمه ويُنطق الأخرس ، ويُسمع الصـم ، يعظ الناس .. يشفيهم بأمر الله ..!
.. أعطوه عصا موسى وراح يشق بها في الظلام طريقاً !
أعطوه مزمار داود وصوته وعلم سليمان ..
لا تخافي يا أم .. فكل شيء سيمضي وفقاً لما نريد !!
– حسناً ! .. حسناً يا سعد .. الآن أرحت قلبي

قال علي : تعرفين يا أم أن الحرب بين فارس والفتوة مستعرة من زمن و قال فهد : والحرب تعني الخراب

- لا صوت هناك يعلو على صوت المعركة

- الأراضي بارت ولا تجد من يفلحها ، والمصانع توقفت و ..

- الخراب يحط على كل شيء

- الناس من الضيعتين يتسللون إلى ضيعتنا فرادى وجماعات بحثاً عن عمل أو بالأصح بحثاً عن لقمة وكسوة ومكان آمن

قال فهد : يتعشمون فينا خيراً

قال علي : أخوة لنا نخجل أن نردهم خائبين .. حتى وقت قريب كانوا يكسوننا ويطعموننا ويؤثروننا في أعمالهم .. قالت بدوية وقد رقت لحالهم :

- إنهم على الرأس وفي العين

قال سعد : مهلاً يا سادة — فأخشى ما أخشاه — أن يتسللوا إلى الضيعة بغرض غير البحث عن عمل أو لقمة عيش

- ماذا تقصد ؟!

- قد يتسلل البعض بدافع الحقد والسرقة وقد يتسلل البعض الآخر مدفوعاً من مولاه ليحرض أخوته على الوقوف معهم في الحرب .. كأن يحرض أولاد فارس أخوتهم ويحرض أولاد الفتوة أخوتهم .. فيقف الأخ شاهراً السلاح في وجه أخيه !

.. يكفي البعض المارقون منا الذين لم يستمعوا لنا و لم ينتصحوا بنصحنا .. وألقوا بأنفسهم في أتون الحرب ولا نعلم عنهم شيئاً.

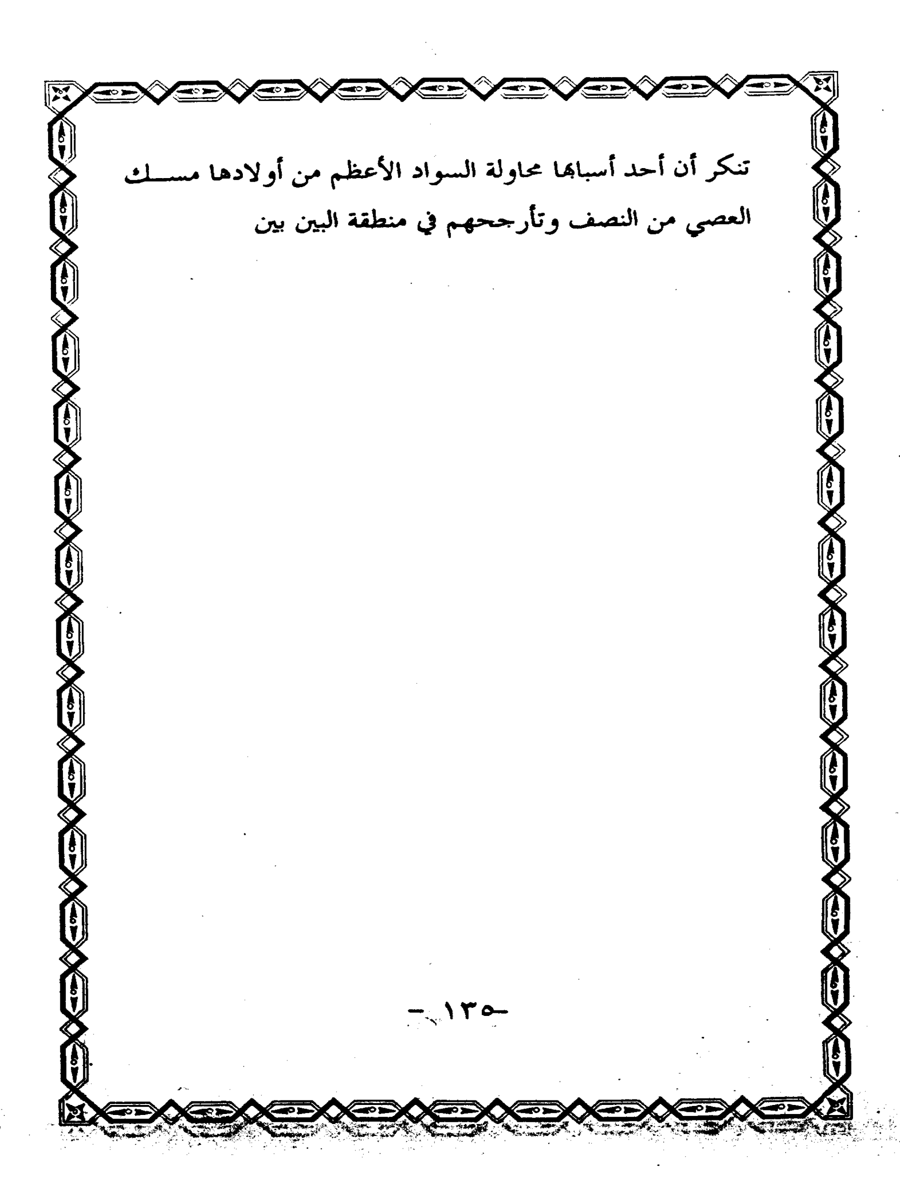
- هل نسد الباب ؟!

لست قاسياً إلى هذه الدرجة .. ولكني أرى أن نرسل لهم الكساء والدواء والطعام.

- ولكن ربما يفهم الفتوة أننا نساعد فارس فنوغر قلبه علينا وربما يفهم فارس أننا نساعد الفتوة فيحمل علينا !

- فارس يعلم أن للفتوة أولاداً من بدوية والفتوة يعلم بأن لفارس أولاداً من بدوية .. ونعلنها صراحة أننا لا نساعد فارس ولا الفتوة في الحرب .. ولكننا نطعم جوعاناً ونكسوا عرياناً ونداوي مريضاً.

.. وبينما المناقشة بين شد وجذب - شردت بدوية !
وقالت سبحان الله .. الناس تأتي إلى ضيعتنا من كل فج عميق .. من يأتي للعمل .. ومن يأتي للإقامة ..
والناس في ضيعتي فارس والفتوة الذين كانوا ينعمون بالعز والمال الوفير يحلمون - بالإقامة في ضيعتنا والعمل عندنا ..
سبحان مغير الأحوال ، ومقلب القلوب ، صحيح ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال ..
وأفاقت بدوية على الحوار الذي أخذ أبعاداً جديدة ..
-نحن نفكر لبعيد ، فالفتوة زائل وفارس زائل والناس هي التي تبقى .. فإذا صنعنا معروفاً دام بين الأجيال واتصل ، يحملونه لنا في القلوب ، ويحملوننا على الأعناق ..
واستمر الحوار .. ترتفع درجة حرارته وتخفت ، ويصعد ويهبط ..
وتركتهم بدوية وثمة فرحة تلوح من بعيد في سماء عينيها الجميلتين وإن كانت تجهل كل أسباب هذه الفرحة فإنها لا



تنكر أن أحد أسبابها محاولة السواد الأعظم من أولادها مسـك العصي من النصف وتأرجحهم في منطقة البين بين

( ٣٠ )

قال كبير العسس للشيخ الراقد في فراشه مريضاً ..

- نجحت بدوية أن تلغي المسافات بين أولادها من فارس وأولادها من الفتوة وأولادها منك ، جعلت من نفسها مركزاً لدائرة شكل أولادها منحناها .. متلاحمين ، يصعب اختراقه ويصعب النفاذ منه وجعلت من ضيعتها مركزاً للضياع التي حولها .. أخذت أجمل ما عند فارس وأجمل ما عند الفتوة وأجمل ما عندنا .. استعانت بأهل الرأي والحل في الضياع البعيدة والكبيرة .. أقامت ضيعة تتوق لها القلوب وتهفو إليها النفوس .. هي الجنة التي قرأنا عنها في الكتب المقدسة .. يسعى إليها البدوي والحضري ، والعربي ، والأعجمي.

سعل الشيخ وزفر غضباً وقال :

- تجاوزت العلامات الخضراء والصفراء والحمراء ، انفلتت من الدائرة المرسومة لها.

- أرى يا مولاي أنها بضيعتها وأسلوبها أصبحت تشكل خطراً على ضيعتنا يفوق خطر الفتوة وفارس ، الفتوة وفارس أصبحا من الضعف بحيث لا يخيفان فأراً ولا حتى دجاجة !

- لأول مرة نخطئ حساباتنا .. فالخطر يأتينا من حدودنا مع بدوية التي كنا نظنها آمنة.

- الناس في ضيعتنا ينظرون لبدوية بإكبار وإعجاب ، يقارنون همساً بين ضيعتنا وضيعتها وأسلوبنا ومنهجنا ونظرياتنا وأسلوبها ومنهجها ونظرياتها .. ولا أكتمك سراً يا سيدي إذا قلت أن المقارنة تميل لصالح بدوية.

قال الشيخ :

- أمهلني بعض الوقت لأنظر في أمرها ولا تجعل أعين رجالك يغيبون عنها لحظة ، أريد أن ترصدوا كل تحركاتها أولاً بأول ، تحصون أنفاسها ، دقات قلبها ، وكل شيء في الضيعة صغيراً كان أو كبيراً.

.. أريد بيانات صحيحة وإحصاءات دقيقة.

- السمع والطاعة يا مولاي.

وانصرف كبير العسس وترك الشيخ يسعل ويفكر.

قال الشيخ لنفسه وهو حزين :

- مرضت و لم تعدني ، شغلتها أحلامها عني ، فلو قمت بغزو ضيعتها لضاعت هيبتي وفقدت مصداقيتي عند أهلي وعند أهل الضياع الآخرى.

... ماذا جرى لك يا شيخ ..؟!

امرأة تقهرك بهذا الشكل !

ولكنها ليست أي امرأة .. إنها زوجتي !.. سيقولون طمع في مالها سيقولون أصابه الخرف على الكبر ..

.. لو قمت بغزوة سريعة لضيعتها لاستفحل أمرها .. صارت نموذجاً ، ومثلاً أعلى .. وأول من يعلن التمرد والعصيان هم أهل ضيعتي الذين حزمتهم وأغلقت عليهم وفرضت عليهم نموذجي و لم يعرفوا غيره طوال حياتهم .. كنا نقنعهم فيما مضى بفساد النظم والنماذج في الضياع الأخرى .. على مدى السنين والشعراء والمداحون ورواة السير يلهجون بحمدنا وبنموذجنا حتى استشرى .. وهاهي بدوية تأتي بنظام جديد

ونموذج جديد ، خليط من أنظمة متعددة ومزيج من نمـــاذج كثيرة .. خرجت بأطروحات جديدة ورؤى جديدة وأفكـــار جديدة وطبقتها وبحكم أنها زوجتي ولا حدود بيننا ولا فواصل .. عرفها الناس .. أصبح لديهم نموذجٌ آخر ليفـــاضلوا بينـــه وبين نموذجنا.. انصراف الناس عن النموذج الذي ارتضينـــاه معناه انصرافهم عنا ..

إنه نموذج الآباء والأجداد ورثناه عنهم ولن نحيد عنه ، سنسلمه لجيل يأتي من بعدنا .. سيتسلمه جيل بعد جيل حـتى تقوم الساعة .. ما أكثر النماذج التي جاءت عليه وفنيت وبقي هو .. فلماذا تخاف يا شيخ ؟!

نموذج بدوية لابد أن يفني .. ولكن هل أدعه يفني ويتحلل من نفسه ..

أعتقد أن الانتظار صعب .. ومن يدري .. ربما يستقر أمره ويستشري ويجد من يدعمه ويقويه .. لابد من التدخـــل السريع والحاسم والعمل بكل قوة على إفنائه ..

استطاعت بمهارة وذكاء أن تغزل من نموذجي ومـــن نموذج فارس ومن نموذج الفتوة .. تغزل نموذجاً جديداً وتنسج نظاماً يحبه أهل الضياع الثلاثة وجعلت فيه للبـــدوي نصيبـــاً وللحضري نصيباً ، للعربي وللأعجمي .. لا أحد ينكـــره ولا أحد يبغضه .. الكل يهواه

.. إيه !! .. ماذا جرى لك يا شيخ ..؟!

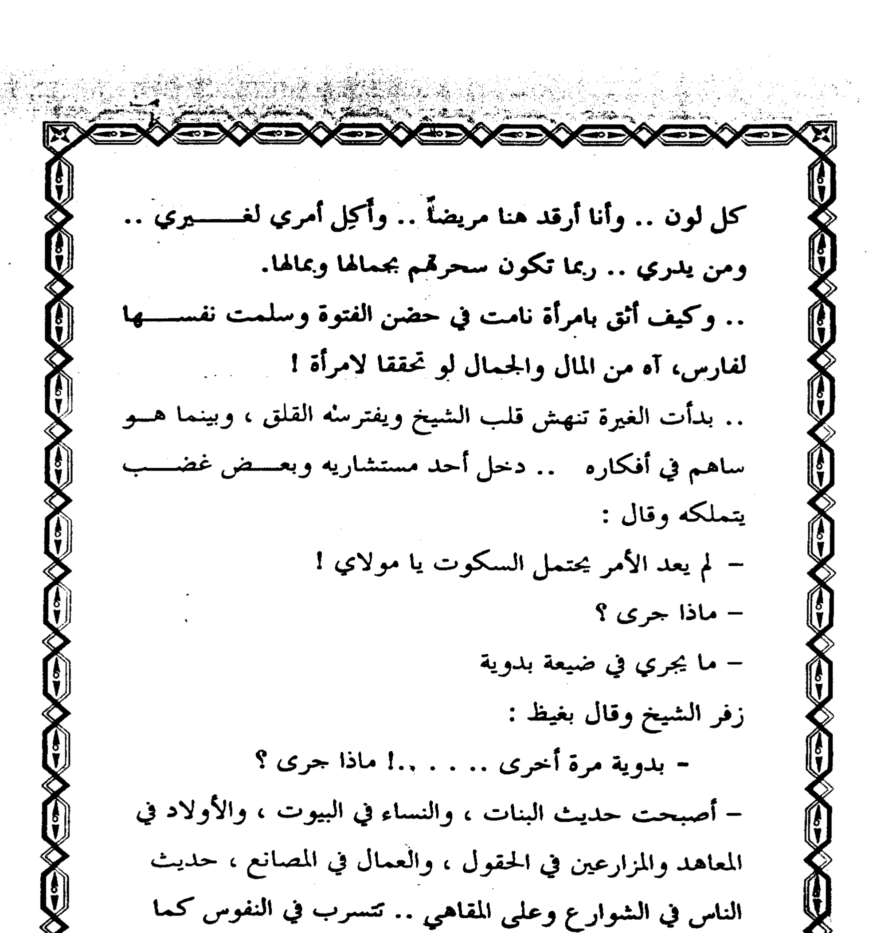
أتنتظر لتكون نهايتك على يد امرأة !

.. أتطلقها ؟

.. حقاً لقد كبرت يا شيخ .. فالطلاق قـــد يزيـــد الأمـــور تعقيداً ..

وألف من يتمنى أن يتزوجها .. وربما هي تسعد بالطلاق ، فلقد وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً .. و لم تزل هي في عنفوان الشباب .. ومن يدري .. وربما يكون هناك من يطفئ لظى رغبتها.

.. خرجت عن طوعنا ، وعصت أمرنا ، وجاءت برجال بيض ورجال حمر ورجال صفر ورجال زرق ورجال سود .. علـى



**كل لون .. وأنا أرقد هنا مريضاً .. وأكِل أمري لغـــيري .. ومن يدري .. ربما تكون سحرتهم بجمالها وبمالها.**

**.. وكيف أثق بامرأة نامت في حضن الفتوة وسلمت نفســها لفارس، آه من المال والجمال لو تحققا لامرأة !**

.. بدأت الغيرة تنهش قلب الشيخ ويفترسه القلق ، وبينما هـو ساهم في أفكاره .. دخل أحد مستشاريه وبعـض غضـب يتملكه وقال :

– لم يعد الأمر يحتمل السكوت يا مولاي !

– ماذا جرى ؟

– ما يجري في ضيعة بدوية

زفر الشيخ وقال بغيظ :

- بدوية مرة أخرى .. . . ..! ماذا جرى ؟

– أصبحت حديث البنات ، والنساء في البيوت ، والأولاد في المعاهد والمزارعين في الحقول ، والعمال في المصانع ، حديث الناس في الشوارع وعلى المقاهي .. تتسرب في النفوس كما يتسرب الماء في الأرض ( الشراقي ) .. تتسلل إلى القلوب كما

يتسلل ضوء الشمس .. أشعر بأنها أصبحت خطراً ولو انتظرنا لاستفحل الأمر ، وكل يوم يمضي تكتسب فيه مساحة من الود في القلوب عند الناس في ضيعتنا وفي كل الضياع.

قال الشيخ بضيق وغضب :

- دبرني يا وزيري ؟!

قال :

جئتك بخطة أتمنى أن تحوز إعجابك وتنال رضاك.

وتناول الشيخ منه مكتوباً وراح يطالعه بسرعة ، وريثما فـرغ من قراءته .. هدأت نفسه ، واستراحت ، ونظر إلى وزيـــره الذي أعاد إليه الروح والبسمة وقال :

- أنت إبليس ضيعتي الذي لا أستطيع الاستغناء عنه

ضحك إبليسه وقال :

- وأنت سيد من أمسك الملائكة بيمينه والأبالسه بيســاره ، و خَلَطت بعضاً ممن في يمينك ببعض ممن في يسارك ... و ...

وضحك الشيخ وقهقه وأمر بتقديم العشاء.

درجت بدوية أن تجلس مع أولادها نهاية كل يـــوم ، تناقش معهم أمور الضيعة يستعرضون أعمالاً ومشاريع نفـذت وأعمالاً ومشاريع جديدة ستنفذ .. امرأة عركتها الحياة وزادتها الأيام خبرة ، تجيد الإصغاء للجميع ، تعرف متى تتكلم ؟ ومتى تصمت ؟ .. سوّت بين أولادها في النظر وفي القُبـــل .. مـــا عادت تقدم أولاد الشيخ على أولاد فارس ولا أولاد فـــارس على أولاد الفتوة .. عرفت كيف تضع كلاً في مكانه وتوظفـه توظيفاً صحيحاً ..

قال فهد : بعد أن وضعت الحرب أوزارها علينا أن نناقش دور الضيعة ومستقبلها

– ماذا تريد تحديداً ؟

– نريد دوراً أكبر .. فالجلباب الذي نرتديه ضـــاق علينـــا ، فلماذا لا نستثمر حالة الضعف التي عليها الفتوة والهوان الـــذي يعيشه فارس ..

.. ضيعتنا أفضل من الضياع التي حولنا مالياً وإدارياً ، ولدينا علاقات جيدة بالضياع الكبيرة ، نتمتع بحرية واستقرار ، ونظامنا صادف هوى ولاقى قبولاً عند الجميع ، فلماذا لا نأخذ دور فارس والفتوة معاً ويبزغ نجمنا ..

قال علي :

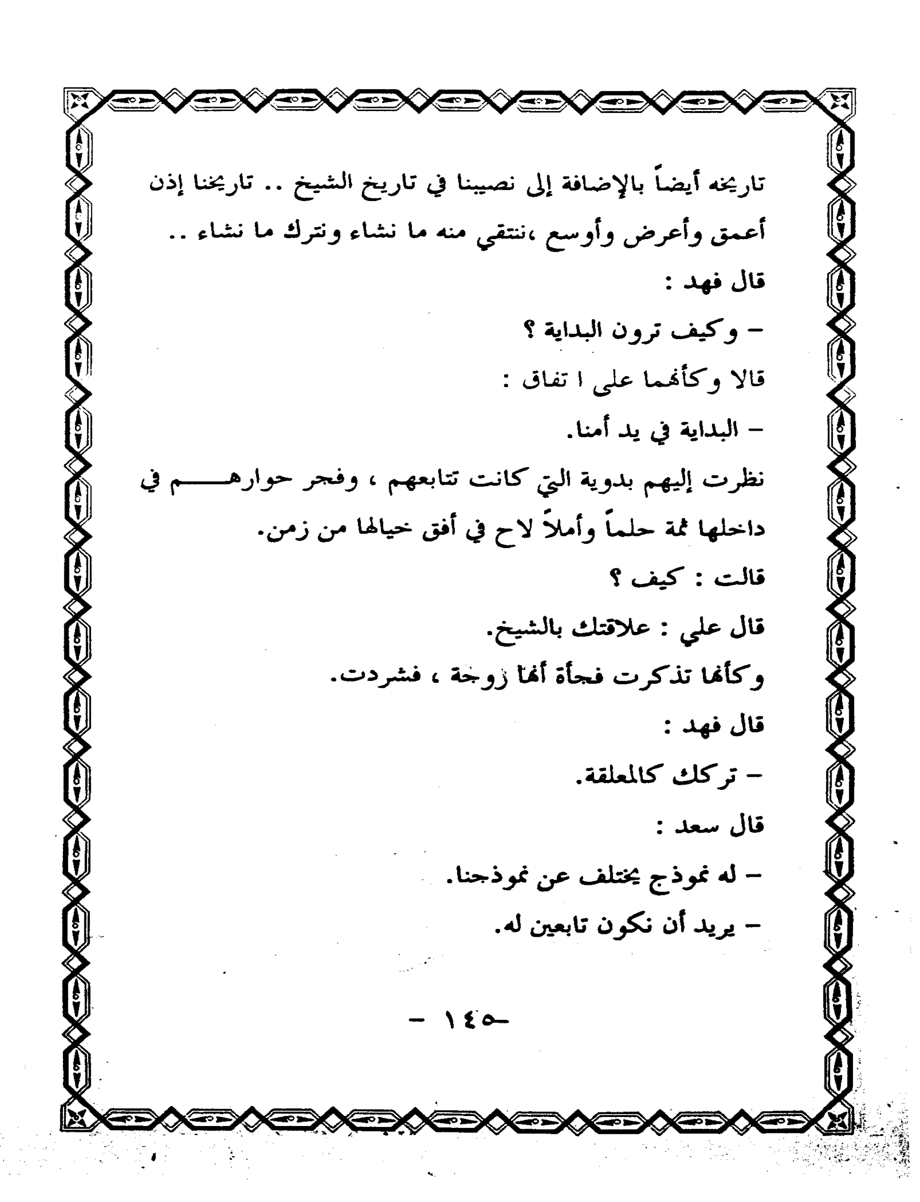
– أنا أوافقك .. ويجب فعلاً أن نلعب دوراً أكبر يتلاءم مع إمكاناتنا وطموحاتنا والملعب خال.

قال سعد :

يجب ألا تنسوا أننا لا نملك من مقومات الكبار غير القوة المادية فقط .. ففارس قبل أن تهده الحرب كان يملك التاريخ والمال والعسكر، والفتوة أيضاً قبل أن تنهكه الحرب كان يملك المال والتاريخ والعسكر ..

قال علي :

– ولماذا نسقط حقنا في التاريخ ، أليس فينا من فارس فنحن إذن نملك تاريخه ، وأليس فينا من الفتوة ؟ .. فنحن نملك



تاريخه أيضاً بالإضافة إلى نصيبنا في تاريخ الشيخ .. تاريخنا إذن أعمق وأعرض وأوسع ،ننتقي منه ما نشاء ونترك ما نشاء ..

قال فهد :

- وكيف ترون البداية ؟

قالا وكأنهما على ا تفاق :

- البداية في يد أمنا.

نظرت إليهم بدوية التي كانت تتابعهم ، وفجر حوارهم في داخلها ثمة حلماً وأملاً لاح في أفق خيالها من زمن.

قالت : كيف ؟

قال علي : علاقتك بالشيخ.

وكأنها تذكرت فجأة أنها زوجة ، فشردت.

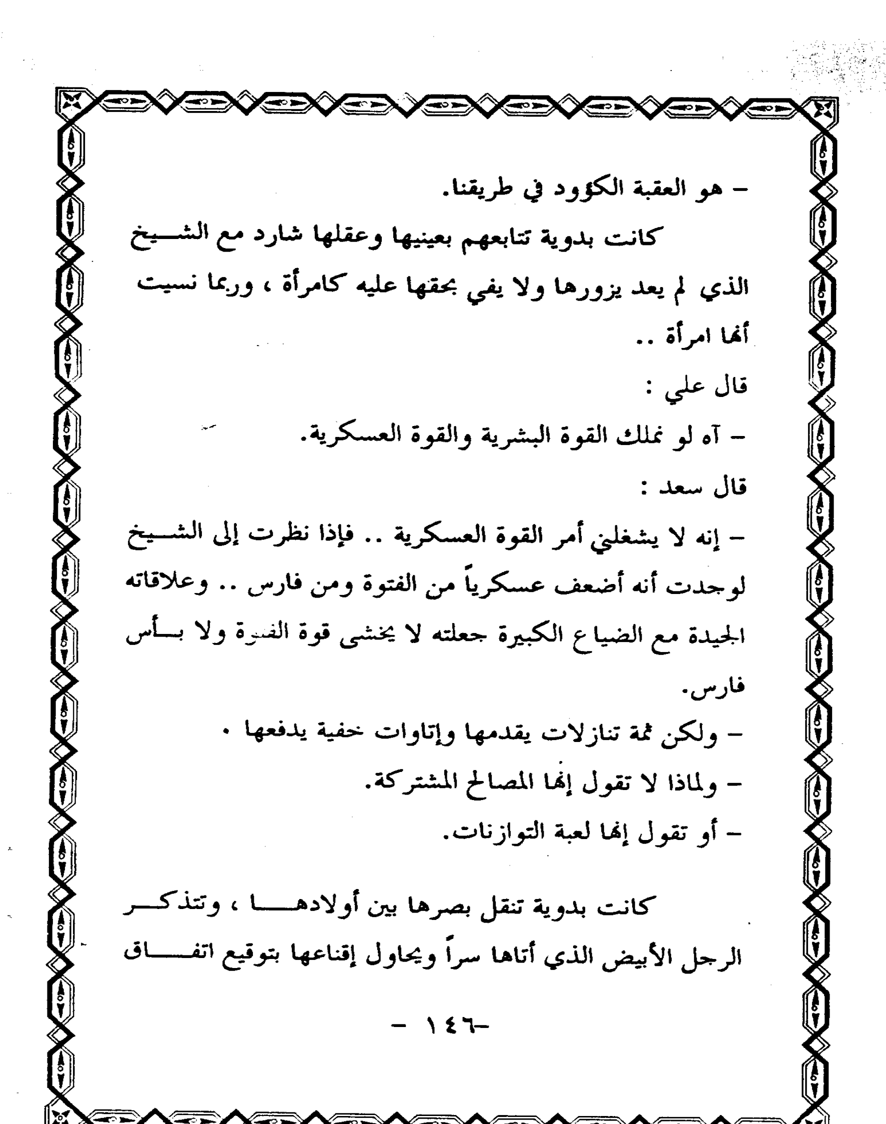
قال فهد :

- تركك كالمعلقة.

قال سعد :

- له نموذج يختلف عن نموذجنا.

- يريد أن نكون تابعين له.



- هو العقبة الكؤود في طريقنا.

كانت بدوية تتابعهم بعينيها وعقلها شارد مع الشيخ الذي لم يعد يزورها ولا يفي بحقها عليه كامرأة ، وربما نسيت أنها امرأة ..

قال علي :

- آه لو نملك القوة البشرية والقوة العسكرية.

قال سعد :

- إنه لا يشغلني أمر القوة العسكرية .. فإذا نظرت إلى الشيخ لوجدت أنه أضعف عسكرياً من الفتوة ومن فارس .. وعلاقاته الجيدة مع الضياع الكبيرة جعلته لا يخشى قوة الفتوة ولا بأس فارس.

- ولكن ثمة تنازلات يقدمها وإتاوات خفية يدفعها .

- ولماذا لا تقول إنها المصالح المشتركة.

- أو تقول إنها لعبة التوازنات.

كانت بدوية تنقل بصرها بين أولادها ، وتتذكر الرجل الأبيض الذي أتاها سراً ويحاول إقناعها بتوقيع اتفاق

حماية .. ولا تدري بدوية لماذا بدأت تستشعر الخوف، لماذا الخوف يا بدوية وأنت تمدين يدك للجميع للصغير وللكبير .. الفتوة لن تقوم له قائمة بعد أن أنهكته الحرب ويحتاج إلى عشرات السنوات ليلملم فيها الجراح ويسدد الديون، ويبني ضيعته التي أصبحت أطلالاً وخراباً ، يحتاج إلى سنوات وسنوات ليستعيد الكبرياء والكرامة المفقودة ..

عيناها لا تفارقان شفاه أولادها.

– أنا مازلت أرى أن الشيخ أشد خطراً علينا من فارس ومن الفتوة.

– أعتقد أن علاقته بأمك تجعلنا إلى حد ما نأمن خبثه ونظر إلى أمه وقال :

– من فضلك يا أم دعينا نتحدث بصراحة .. هل مازال الشيخ يحبك كسابق عهده بك .. أيام البداوة والفقر ولماذا لم يعد يزورك كما كان ؟

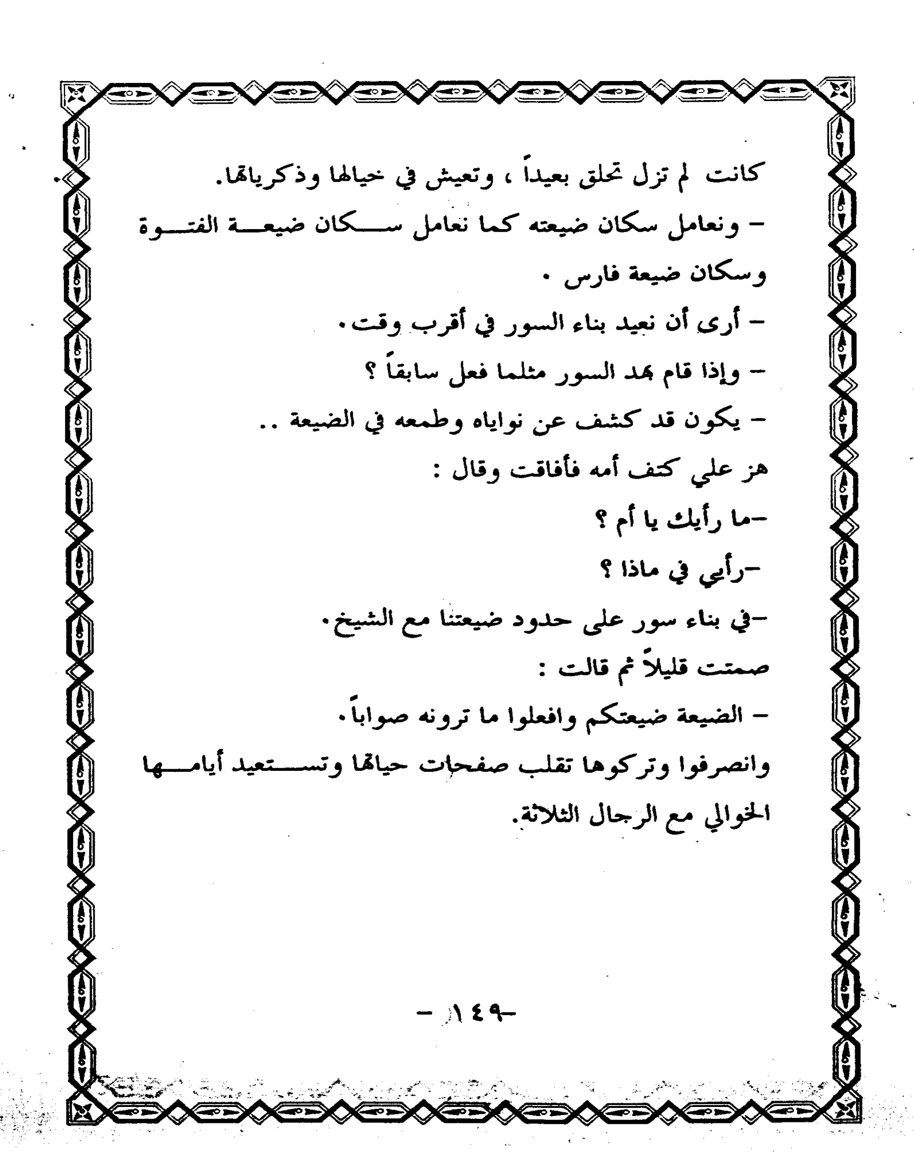
– أشعر بفتور العلاقة بينكما ..

صمتت الأم وخيمت سحابة من الحزن على عينيها وقالت :

- ربما يكون شغله عنا شاغل ، وأنتم تعلمـــون مشـــاغله ، والشواغل والسنون استترفت صحته .. وربما تكـــون أمـــور الضيعة قد شغلتني عنه .. فإذا كانت العلاقة فاترة اليوم .. فغداً يعود الود والوصال .. فالعلاقة الزوجيـــة بـــين أي زوجـــين تتأرجح بين الحرارة والبرودة .. ربما يكون له تحفظات علـــى أسلوبنا والنموذج الذي ارتضيناه لضيعتنا .. ولكن ليس معـــنى هذا أن يقف في طريقنا أو يحاول أن يعوقنـــا .. إن غيرتـــه .. غيرة المحب .. لا غيرة الحاقد أو الحاسد ، من فرط حبـــه لنـــا يريدنا أن نرى بعينيه ونسمع بأذنيه ونتكلم بلسانه ونفكر بعقله .. للشيخ طبيعة مختلفة .. وأسلوب تفكير مختلف .. وبكـــت بدوية .. خرجت عن طوعه من أجلكـــتم ، تحملـــت فراقـــه وهجره من أجلكم .. ولكنني لم أفقد الأمل في أن أعيـــده إلي .. بعد أن أصبحتم رجالاً لكم نموذجكم وضيعتكم وأسلوبكم

- كل ما يعنينا يا أم أن نعيد صياغة العلاقة بيننا وبينـــه وألا يدس أنفه في أمور ضيعتنا ولا يتدخل في شئوننا و ..

- وأن نعيد تسوير ضيعتنا على حدودنا معه



كانت لم تزل تحلق بعيداً ، وتعيش في خيالها وذكرياتها.

– ونعامل سكان ضيعته كما نعامل سكان ضيعة الفتوة وسكان ضيعة فارس .

– أرى أن نعيد بناء السور في أقرب وقت.

– وإذا قام بهد السور مثلما فعل سابقاً ؟

– يكون قد كشف عن نواياه وطمعه في الضيعة ..

هز علي كتف أمه فأفاقت وقال :

–ما رأيك يا أم ؟

–رأيي في ماذا ؟

–في بناء سور على حدود ضيعتنا مع الشيخ.

صمتت قليلاً ثم قالت :

– الضيعة ضيعتكم وافعلوا ما ترونه صواباً.

وانصرفوا وتركوها تقلب صفحات حياتها وتستعيد أيامها الخوالي مع الرجال الثلاثة.

(٣٢)

دخل كبير البصاصين على الشيخ وقال :

- بدوية تعيد بناء السور

قال الشيخ بضيق وغضب :

- بدوية !.. بدأت بدوية تسفر عـــن وجهـــها الحقيقـــي .. وتتحداني .. نفد صبري معها .. تالله لألقنها درساً لن تنســـاه وسأجعلها تأتي زاحفة تقبل القدم وتبدي الندم ..

سأجعل منها خادمة لإحدى زوجاتي .. الصبر .. الصبر يـــا بدوية .. فالأيام بيننا .. وقال لكبير البصاصين :

- استدع صديقي الأبيض.

- السمع والطاعة يا مولاي.

**********************

كان الشيخ يراجع الخطة التي وضعها وزيره الإبليـــس عندما دخل عليه مندوب ضيعة الأبيض في ضيعتـــه .. أبـــان الشيخ عن نواياه وأفصح عن قلقه للرجل الأبيض الـــذي راح

يصغي جيداً له وابتسامة صفراء تملأ وجهه ،قـــال الأبيـــض لنفسه:

- هاهي الفرصة تأتيك وأنت تتحينها منذ سنوات .. لن أدعها تفلت مني ، سأقبض عليها بيد من حديد .. وراح يضحك مع نفسه تهربت مني يا بدوية وأنا ألح عليك لتوقعي معنا اتفـــاق حماية .. وغداً ستقبلين القدم لأتنازل وأوقع معك الاتفـــاق .. سأفرض عليك شروطي وأملي عليك رغباتي.

قال الشيخ :

- أعتقد أن الفتوة يتوق اليوم إلى التعامل معكم بعد أن أفـــل نجم أصدقائه الحمر وانشغلوا عنه بالفتن والقلاقل التي انتشـــرت في ضيعتهم.

قال الأبيض : نعم .. نعم وعن طريق بعض الأصدقاء أرسلنا له السلاح والمال والرسائل

- هو يحتاج إلى المال ليعيد بناء ضيعته وما دمرته الحرب.

- والمال يتفجر أنهاراً بجواره .. تلالاً على بعد خطوات منه.

- سنؤكد له أن ضيعة بدوية لا تخضع لنفوذنا و لم توقع معنا اتفاق حماية.

- تزينون له الضيعة .. غزوة سريعة يحمل تلال الفلوس وتلال الذهب ، ينقل ما خف وزنه وثقل ثمنه في أسرع وقت.

- نعم .. ولا تجد بدوية ملجأ آمناً إلا حضن الشيخ.

- ولا تجد حامياً لها ولا صديقاً مخلصاً سواك.

- تفتح لها ولأولادها ضيعتك بضعة أسابيع.

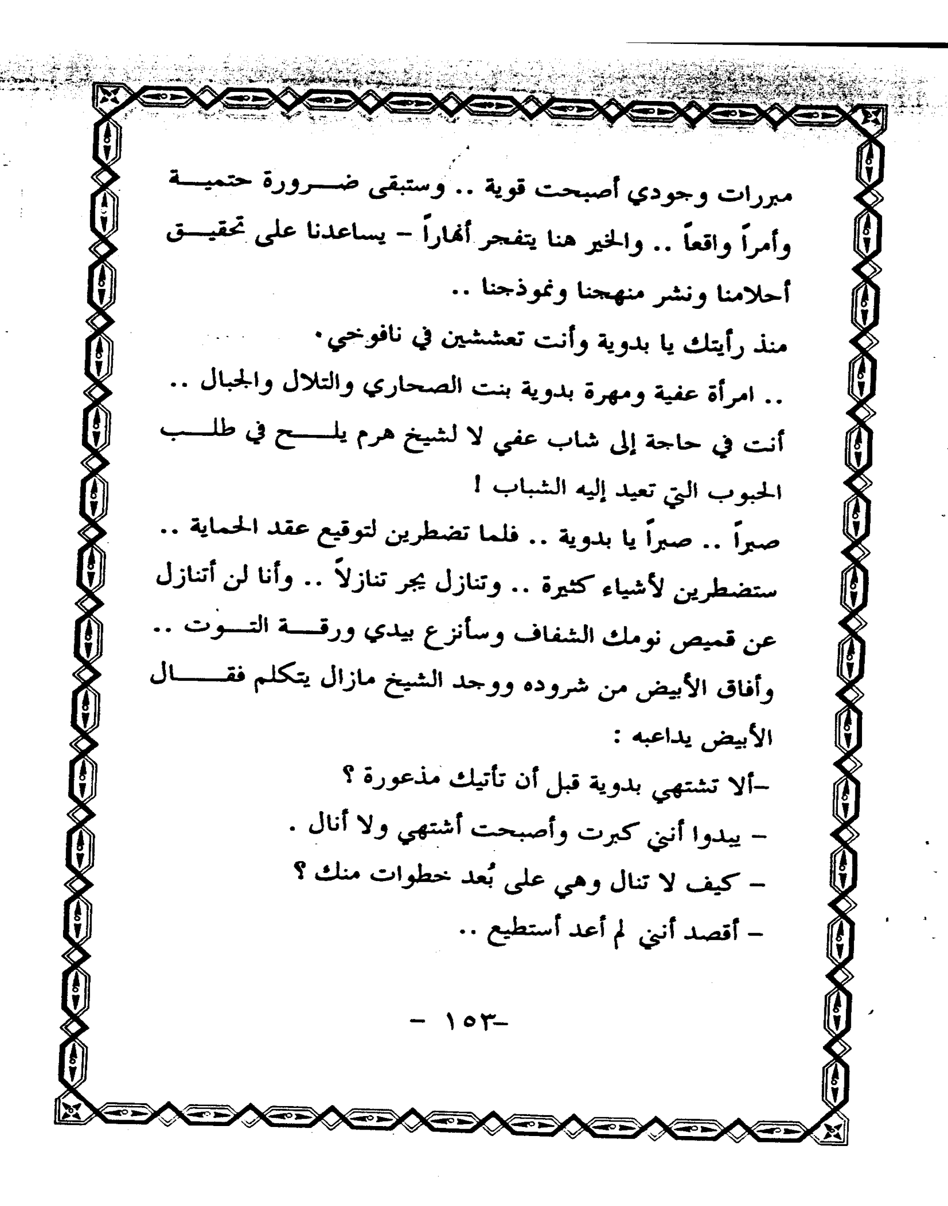
- وأنت خلال هذه الأسابيع تأتي بعسكرك وفرسانك وسلاحك وتطرد الفتوة .

- وأقيم هنا ..

- وتقيم هنا .. فمن غيرك يحمينا ؟

****************************

سرح الأبيض قليلاً .. وراح يتصور التاريخ الجديد والجغرافية الجديدة التي جاء ليصنعها .. راح يتصور الكرة الأرضية وهو يشوطها بقدمه .. يحركها في أي اتجاه يريد ..



مبررات وجودي أصبحت قوية .. وستبقى ضـرورة حتميـة وأمراً واقعاً .. والخير هنا يتفجر أنهاراً - يساعدنا على تحقيـق أحلامنا ونشر منهجنا ونموذجنا ..

منذ رأيتك يا بدوية وأنت تعششين في نافوخي.

.. امرأة عفية ومهرة بدوية بنت الصحاري والتلال والجبال .. أنت في حاجة إلى شاب عفي لا لشيخ هرم يلـح في طلـب الحبوب التي تعيد إليه الشباب !

صبراً .. صبراً يا بدوية .. فلما تضطرين لتوقيع عقد الحماية .. ستضطرين لأشياء كثيرة .. وتنازل يجر تنازلاً .. وأنا لن أتنازل عن قميص نومك الشفاف وسأنزع بيدي ورقـة التـوت ..

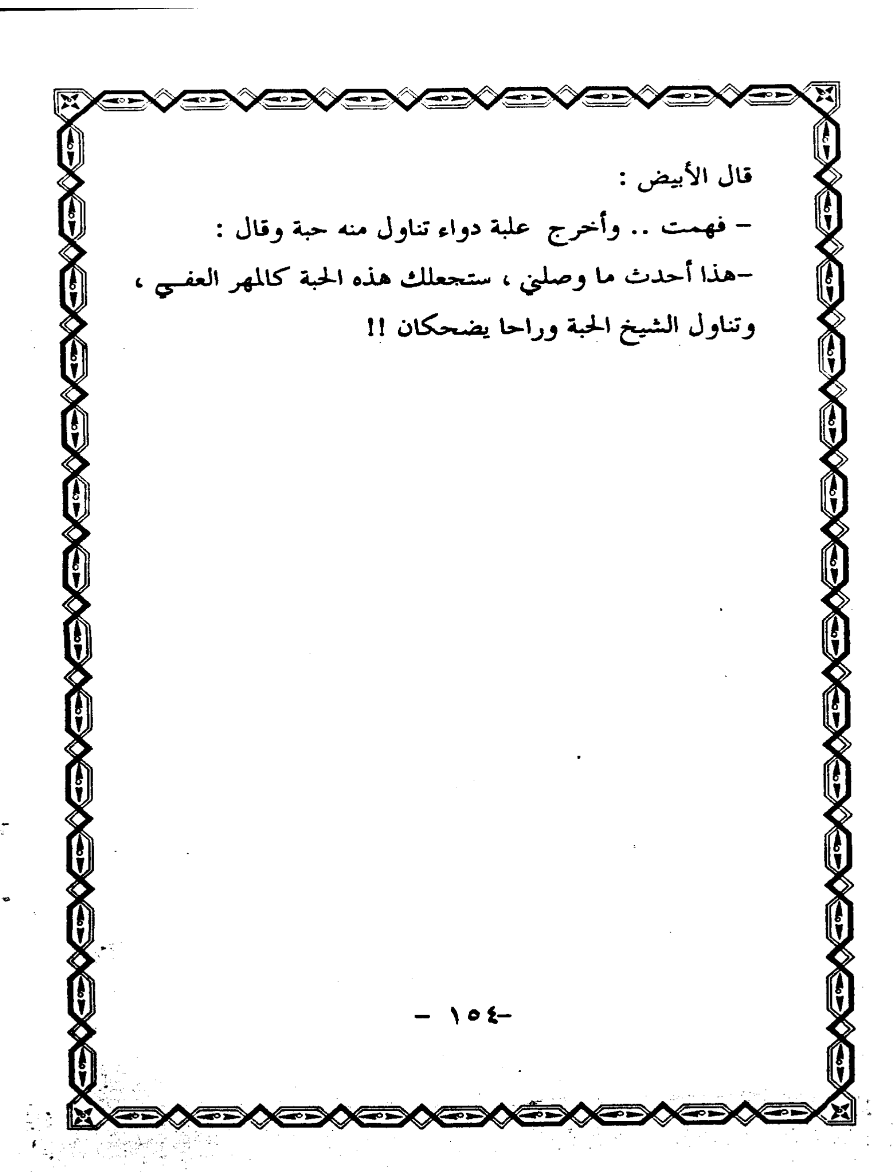
وأفاق الأبيض من شروده ووجد الشيخ مازال يتكلم فقـال الأبيض يداعبه :

-ألا تشتهي بدوية قبل أن تأتيك مذعورة ؟

- يبدوا أني كبرت وأصبحت أشتهي ولا أنال .

- كيف لا تنال وهي على بُعد خطوات منك ؟

- أقصد أنني لم أعد أستطيع ..



قال الأبيض :

- فهمت .. وأخرج علبة دواء تناول منه حبة وقال :

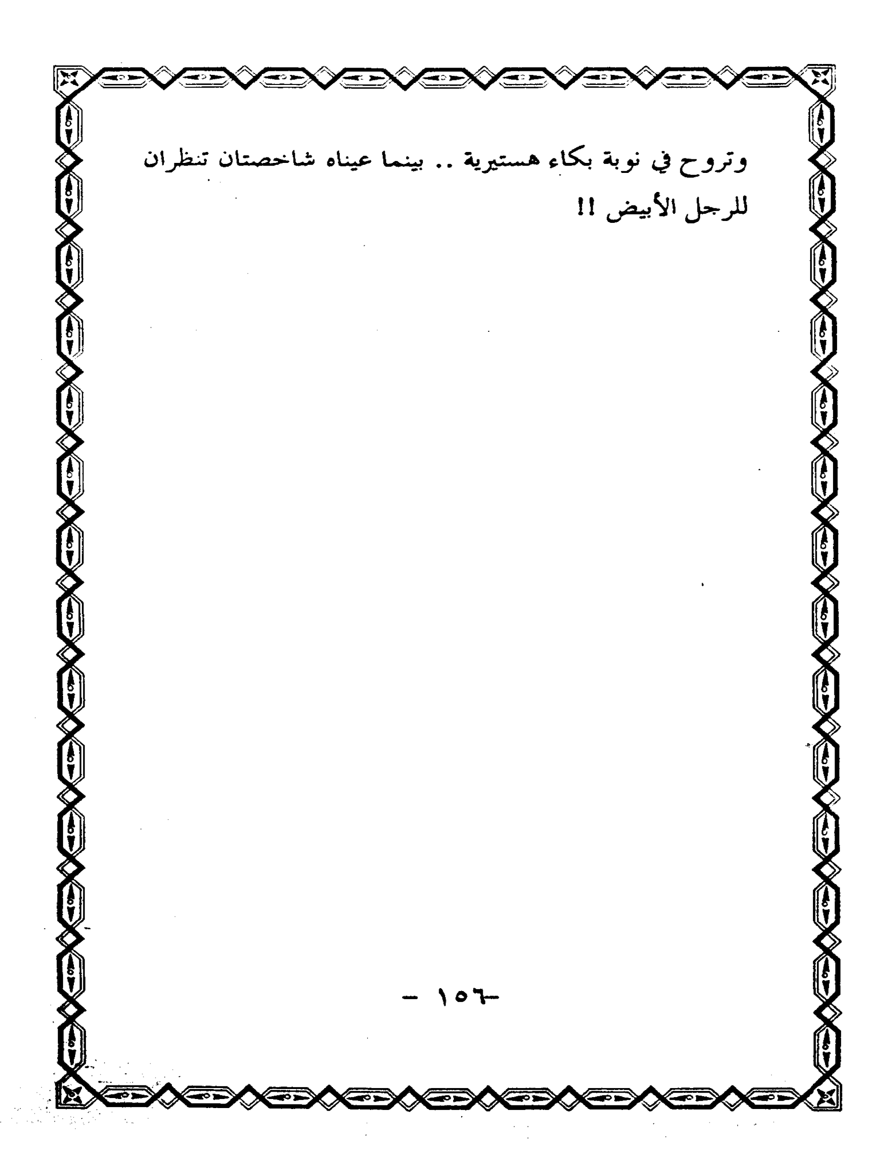
-هذا أحدث ما وصلني ، ستجعلك هذه الحبة كالمهر العفـي ،

وتناول الشيخ الحبة وراحا يضحكان !!

امتلأت الساحة الواسعة التي تضم ضريح بدوي بـأهل الضيعة والضياع المجاورة .. فليس هناك مكان لقدم .. تقـاطر الناس حول الضريح من كل مكان .. الشـعراء والمداحـون ورواة السير ، المغنون والراقصون .. عازفو العـود وضـاربو الدفوف .. الأسرة في الفنادق كاملة العدد .. المقاهي مكتظة ، الموائد في المطاعم لا تفرغ .. احتفال مهيب لم تشهده ضيعـة .. وبينما الناس في أوج الاحتفال بوغتوا بجند الفتوة وأسـلحته .. ساعات .. ساعات قليلة .. وخلت الضيعة مـن سـكانها ووافديها و لم يبق إلا الفتوة ورجالـه ، يسـرقون وينـهبون ويحملون ما يستطيعون حمله ..

**********************

مذعورة كانت تجري في اتجاه ضيعة الشيخ لتجده في انتظارها على الحدود .. فارداً ذراعيه – ترتمي في حضنه



وتروح في نوبة بكاء هستيرية .. بينما عيناه شاخصتان تنظران للرجل الأبيض !!

# أميرة البدو

دراسة بقلم : د٠حسين على محمد

( ١ )

هذه هى الرواية الأولى للقاص مجدى محمودجعفر الذى نشر من قبل أكثر من خمسين قصة قصيرة فى " المساء " " والاهرام المسائى " و"الجمهورية و"أخبار الادب" و" مايو" " و" العروبة " و" أخبار الشرقية "و"صوت الشرقية " ٠٠٠٠٠ وغيرها

وكانت سلسة " أصوات معاصرة " قد نشرت لـه فى يناير ٢٠٠٠ م مجموعته القصصية الأولى ، التى لاقت حفاوة طيبة من النقاد ، وأقيمت لها ندوة لمناقشتها فى نادى القصة فى الأسبوع الأول من يوليو ٢٠٠٠

وتتخذ رواية " أميرة البدو " من " بدوية " شخصية مركزية تدور حولها أحداث الرواية ، ومن خلال

علاقتها المتشابكة بالمحيطين لضيعتها الصغيرة ( الفتـوة ، وفارس ،والشيخ) يقدم لنا الروائي نصاً قـادراً علـى محاورة الواقع ،وإثارة الأسئلة .

فتكاد تكون رواية " أميرة البدو " تنـاولاً أسـطوريا- يشابه من قريب أو بعيد فى بعض أحداثه الغريبـة مـا مرّت به دولة الكويت ٠

لكن كتابة الرواية غير كتابة التاريخ ٠

ونحن لا نقرأ الروايات بديلاً عن قراءة التاريخ واستيعابه .ولذا فلن نعيب على الكاتب أن أحداثه تشبه التـاريخ حينا ، وتختلف مع التاريخ فى أحيان كثيرة !

( ٢ )

**يقول الروائى عن بطلة روايته :**

" رأت نفسها كثقل مربوط بثلاثة حبال ، طرف الحبل الأول فى يد الفتوة ، وطرف الحبل الثانى فى يد فارس،وطرف الحبل الثالث فى يد الشيخ. يرخون الحبال أحياناً، ويشدونها أحياناً أخرى، وتتأرجح بين شد الحبال وجذبها. . ككرة حائرة "

هذا هو حال "بدوية " التى تدور حولها الرواية ، وقد اختار مجدى محمود جعفر فى روايته الأولى أن يقدم لنا رواية رمزية تشير الى الواقع السياسى الذى عايشناه فى ربع القرن الأخير ، والذى بلغ ذروته المأساوية حينما ابتلع صدّام العراق دولة الكويت !

( ٣ )

تمتلئ الرواية بتوق واعٍ الى التوحد البصير، الذى يرى الخلل . ويحلم بالحلول والإجابات، إلا أنه ليس منظراً سياسيا يضع الحلول جاهزة أمام السياسى والزعيم والقائد.

ومن أحلامه الجميلة :

( لماذا لا يكون لدينا مدرسة .. يجلس ابن الفتوة وابن فارس وابن الشيخ على مقعد واحد وكتاب واحد .. ولماذا لا يكون لدينا مسجد واحد ويكون لنا أذانٌ واحد بدلاً من أذانين وصلاة واحدة بدلاً من صلاتين .. يقف ابن الفتوة بجوار ابن الشيخ بجوار ابن فارس، الكتف في الكتف، والقدم في القدم ..

.. أحلم بمدرسة ، ومسجد ، وعلم ونشيد ..

ولكن هل يتركني الشيخ أو الفتوة أو فارس ؟!

الأولاد انفرط عقدهم ، أولاد الفتوة لا يلتقون بـــأولاد فارس ولا بأولاد الشيخ .. ليس بينهم سلام ولا حوار)

لكن الأحلام الجميلة عند مجدى محمود جعفر ليســت إنشاءً أجوف ،ولا كلاماً يطلق فى الهواء ، فبينت الصلـة بالأحداث، فقد جاءت الفقرة السابقة بعد فقرة تتحدث عن تمزق أولاد " بدوية" وتباعدهم :

أين الخلل ؟ ٠٠٠٠ أين الخطأ ؟٠٠٠٠

أبناء الفتوة يتعلمون فى مدارس الفتوة ، وأبناء فـــارس يتعلمون فى مدارس" فارس " وأبناء الشيخ يتعلمـــون فى مدارس الشيخ !! حتى الصلاة كلٌ يؤدى صلاتـــه فى ضيعة أبيه "

وهكذا جاء الحلم الروائى منبثقاً من الحدث وليس غريباً عنه ، أو دخيلاً عليه ٠

( ٤ )

ولأن الاهتمام بالجسد أصبح سمة من سمـــات الكتـــاب الجدد ( والكاتبات الجديدات ) فمن الطبعى أن يهتم بـه مجدى محمود جعفر فى روايته الأولي ،فـــنرى فى نهايـــة الفصل الخامس والعشرين لمحات من ذلك ، لكنـــــه لا يسف فى وصفه كما يسف غيره .

( ٥ )

قد يعترض البعض على اغتصـــاب الفتـــوة بدويـــة فى الفصول الأولى للرواية ، ويرون أنه كان من الأفضل أن يتزوّجها زواجاً شرعياً .لكن هذا الاغتصاب له مايبرره فنياً، إنه يبين حال بدوية المزرى ، فلا قوم يدافعون عنها ،ولا أب يثأر لابنته المغتصبة .بل هذه بدوية ترضـــى بالأمر الواقع قائلة :

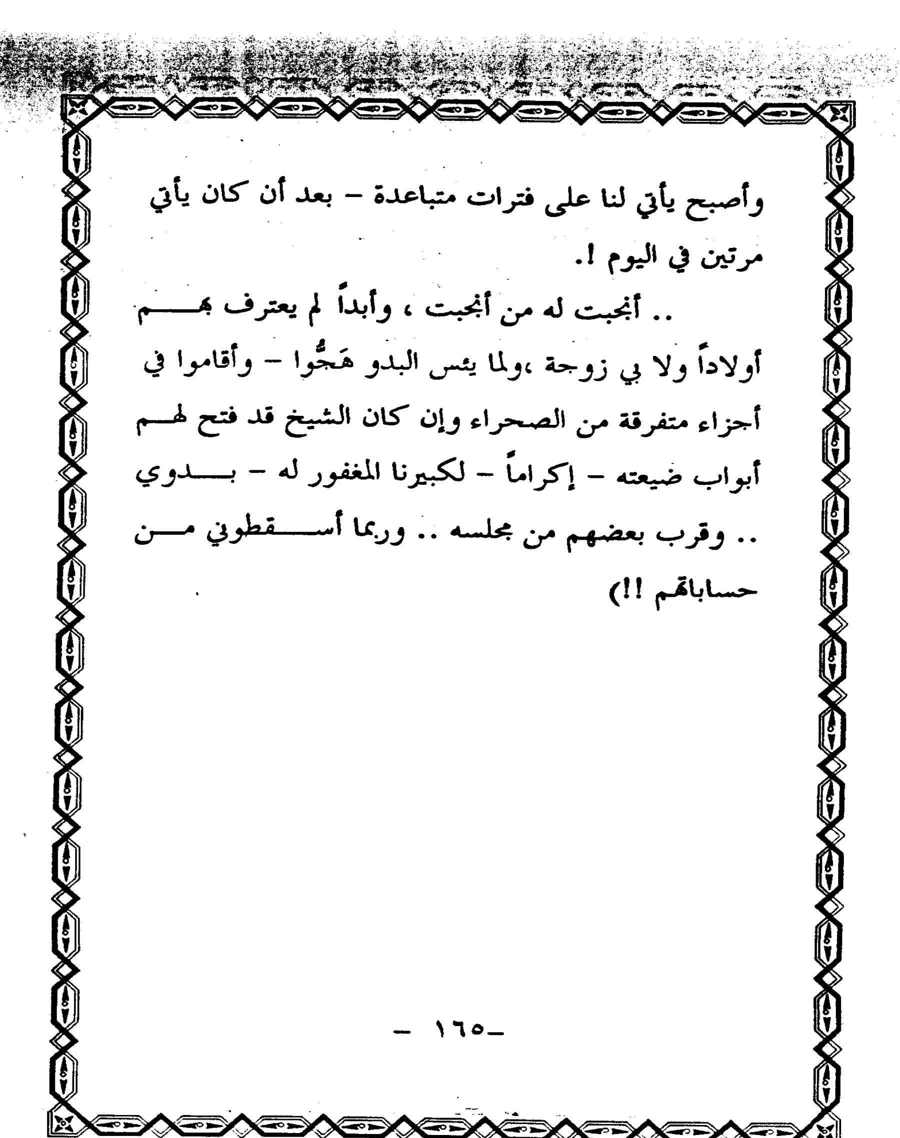
(كان يلقاني دوماً في الهزيع الأخير من الليل ، نمـــارس الحب واللهو الجميل ، يفضي لي ببعض همومه ، ويبـوح ببعض أسراره ، فتوة الضيعة وأسد الصحراء ، يلبـــد في حضني كحمل وديع ، صوته الأجش الصارم القاســـي يتحول إلى صوت رقيق .. ناعم .. دافئ حنون ..

لا أنكر أني أحببته ، وملأ علي حياتي ، كـــان يقول لي. يا أجمل مهرة عربية ، وكنت أقول له يا أعظم

فارس عربي .. كنت أراه (أبو الفوارس) خرج من رحم الحكايات العربية القديمة ، و لم تنقض أسابيع قليلة علــى لقاءاتنا حتى أثمرت جنيناً في البطن ..

زاد أملي ، وأمل البدو الذين نالهم خيراً ، ورزقاً ، أن يعلن الفتوة ضمي إلى نسائه ، وزادت أحلامــي أن يكون للطفل الذي يتشكل في أحشـــائي نصيـــبٌ في الضيعة !.. كان يبتسم عندما أحكي له عن أحلامي ..

أصبحت أحلامي تنحصـــر في الاعـــتراف بي زوجة له ، وبمن يأتي من بطني ابناً له ، وليس كل مـــا يتمناه المرء يدركه ، فبعد أن وضعت مولوداً جميـــلاً – قصارى ما فعله – أن قبله – واقتطع لنا من الصحـــراء المتاخمة لضيعته جزءا صغيراً ، ابتنى لنا فيه داراً صغـــيرة وبيتاً ضئيلاً لا يضاهي بيوت البســـطاء في ضيعتـــه ،



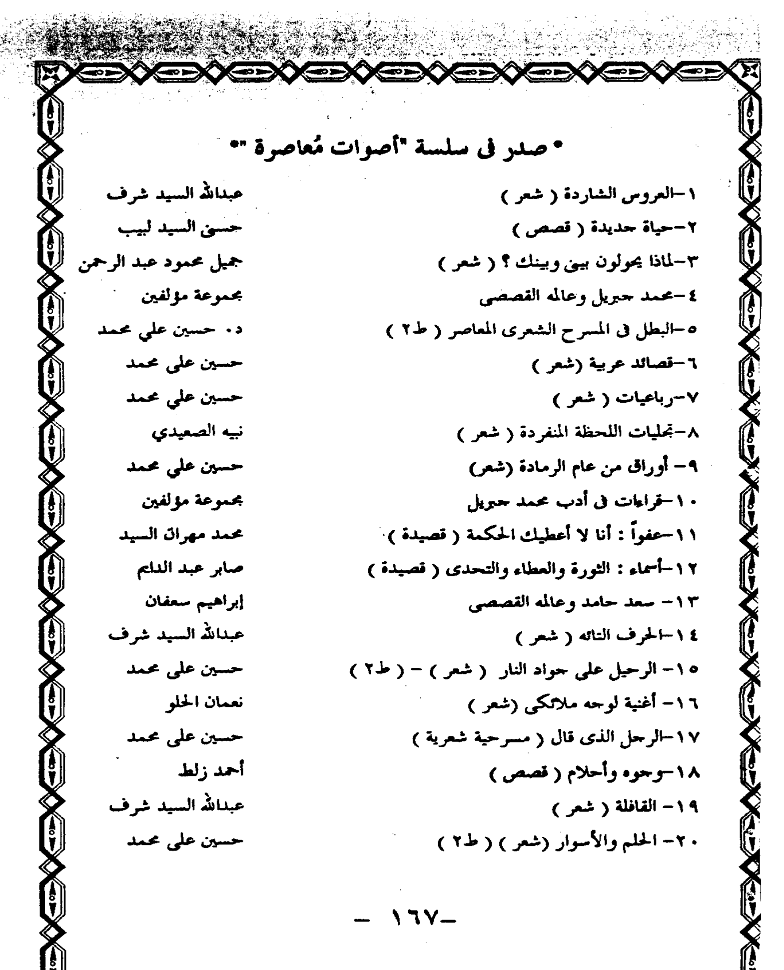
وأصبح يأتي لنا على فترات متباعدة – بعد أن كان يأتي مرتين في اليوم !.

.. أنجبت له من أنجبت ، وأبداً لم يعترف بهم أولاداً ولا بي زوجة ،ولما يئس البدو هَجُّوا – وأقاموا في أجزاء متفرقة من الصحراء وإن كان الشيخ قد فتح لهم أبواب ضيعته – إكراماً – لكبيرنا المغفور له – بدوي .. وقرب بعضهم من مجلسه .. وربما أسقطوني من حساباهم !!)

( ٦ )

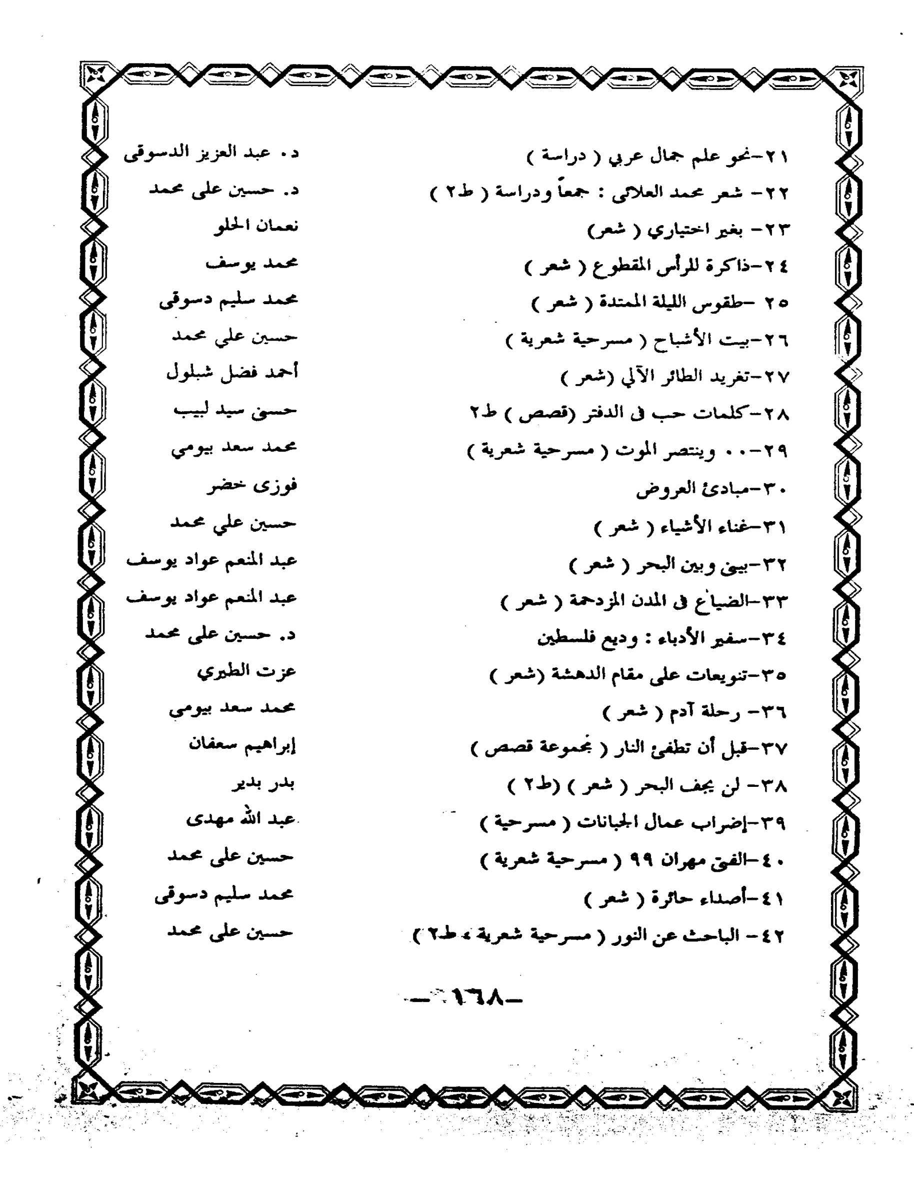
فى روايته الأولى، يهتم مجدى محمود جعفـــر بـــالحدث فيفسح له صفحات روايته ،فى كلمـــات مكتـــزة ، لا مكان عنده للثرثرة واللغو . وقد أدار الحوار بدقـــة فى معظم صفحات الرواية .

وإذا كانت الرواية تتماس مع الواقع ، وتختلف مع كثـير من جزئياته ، فينبغى أن نؤكد هنا أن الفن اختيار مـــن الواقع ،وليس واقعاً حقيقياً لنحاسبه على الخلاف الـذى قد يصدم أذواقنا، أو يتعارض مع الواقع التاريخى الـــذى أراد الرمز به أو الاشارة إليه .



## • صدر فى سلسة "أصوات مُعاصرة "•

| | |
|---|---|
| ١–العروس الشاردة ( شعر ) | عبدالله السيد شرف |
| ٢–حياة حديدة ( قصص ) | حسن السيد لبيب |
| ٣–لماذا يحولون بين وبينك ؟ ( شعر ) | جميل محمود عبد الرحمن |
| ٤–محمد جبريل وعالمه القصصى | مجموعة مؤلفين |
| ٥–البطل فى المسرح الشعرى المعاصر ( ط٢ ) | د. حسين علي محمد |
| ٦–قصائد عربية (شعر ) | حسين على محمد |
| ٧–رباعيات ( شعر ) | حسين علي محمد |
| ٨–تجليات اللحظة المنفردة ( شعر ) | نبيه الصعيدي |
| ٩– أوراق من عام الرمادة (شعر) | حسين علي محمد |
| ١٠–قراءات فى أدب محمد جبريل | مجموعة مؤلفين |
| ١١–عفواً : أنا لا أعطيك الحكمة ( قصيدة ) | محمد مهران السيد |
| ١٢–أسماء : الثورة والعطاء والتحدى ( قصيدة ) | صابر عبد الدائم |
| ١٣– سعد حامد وعالمه القصصى | إبراهيم سعفان |
| ١٤–الحرف التائه ( شعر ) | عبدالله السيد شرف |
| ١٥– الرحيل على جواد النار ( شعر ) – ( ط٢ ) | حسين على محمد |
| ١٦– أغنية لوجه ملائكى (شعر ) | نعمان الحلو |
| ١٧–الرحل الذى قال ( مسرحية شعرية ) | حسين على محمد |
| ١٨–وجوه وأحلام ( قصص ) | أحمد زلط |
| ١٩– القافلة ( شعر ) | عبدالله السيد شرف |
| ٢٠– الحلم والأسوار (شعر ) ( ط٢ ) | حسين على محمد |



| | |
|---|---|
| ٢١-نحو علم جمال عربي ( دراسة ) | د. عبد العزيز الدسوقى |
| ٢٢- شعر محمد العلائى : جمعاً ودراسة ( ط٢ ) | د. حسين على محمد |
| ٢٣- بغير اختياري ( شعر ) | نعمان الحلو |
| ٢٤-ذاكرة للرأس المقطوع ( شعر ) | محمد يوسف |
| ٢٥ -طقوس الليلة الممتدة ( شعر ) | محمد سليم دسوقى |
| ٢٦-بيت الأشباح ( مسرحية شعرية ) | حسين علي محمد |
| ٢٧-تغريد الطائر الآلي (شعر ) | أحمد فضل شبلول |
| ٢٨-كلمات حب فى الدفتر (قصص ) ط٢ | حسنى سيد لبيب |
| ٢٩-.. وينتصر الموت ( مسرحية شعرية ) | محمد سعد بيومي |
| ٣٠-مبادئ العروض | فوزى خضر |
| ٣١-غناء الأشياء ( شعر ) | حسين علي محمد |
| ٣٢-بينى وبين البحر ( شعر ) | عبد المنعم عواد يوسف |
| ٣٣-الضياع فى المدن المزدحمة ( شعر ) | عبد المنعم عواد يوسف |
| ٣٤-سفير الأدباء : وديع فلسطين | د. حسين على محمد |
| ٣٥-تنويعات على مقام الدهشة (شعر ) | عزت الطيري |
| ٣٦- رحلة آدم ( شعر ) | محمد سعد بيومي |
| ٣٧-قبل أن تطفئ النار ( مجموعة قصص ) | إبراهيم سعفان |
| ٣٨- لن يجف البحر ( شعر ) (ط٢ ) | بدر بدير |
| ٣٩-إضراب عمال الجبانات ( مسرحية ) | عبد الله مهدى |
| ٤٠-الفتى مهران ٩٩ ( مسرحية شعرية ) | حسين على محمد |
| ٤١-أصداء حائرة ( شعر ) | محمد سليم دسوقى |
| ٤٢- الباحث عن النور ( مسرحية شعرية ، ط٢ ) | حسين على محمد |